محمّد رشّو

الجوكر





محمد رشو

الجوكر

محمد رشو

الجوكر

صورة الغلاف: نهاد الترك

كتاب إلكتروني 2015

قال الجوكر:

قضينا ساعتين نلمُّ الجثث هنا وهناك، ثم جمعناها أمام مكتب عابدين، كانت سبعة وعشرين جثة، إحداها كانت مقطوعة الرأس، ثم وجدتُ الرأسَ خلف برميل المازوت أمام ميني ماركت شيرين، لكن حين أسعفنا الجرحى والذين بلغ عددهم سبعة وخمسين، تفقدتُ الجثثَ مرة أخرى وانتبهتُ، توقف للحظة مبحلقاً دون أن يرمش عينيه، إلى أن الرأسَ رأسُ رجل لكن الجسدَ جسدُ إمرأة، ورسم بيديه دائرتين في الهواء على مستوٍ واحد ثم شكّلَ بهما دائرةً كبيرة مفتوحةً من الأعلى والأسفل مشيراً بذلك إلى الثديين والحوض وقال: تعرفُ أنت، ثم أضاف: ورغم ذلك دفناهما كما لو أنهما تعودان لشخصٍ واحد، وطوال الطريق من مقبرة حنان إلى حلب، كنتُ أفكّرُ في رأسِ المرأة الذي لم نجده، وفي جسدِ الرجل الذي يغفو رأسه الآن تحت التراب مكمّلاً جسدَ إمرأة.

بارودةُ العميد

(إلى سلوى النعيمي)

١

قبل أن أعاهد نفسي وأعتزل حكايات العساكر وأتفرغ لقراءة بستان الكرز والنورس والعم فانيا والشقيقات الثلاث وقصصه ويومياته ورسائله إلى أولغا كنيبر، كنت قد عدت إلى إدمان العادة السرية، مرة أو مرتين في اليوم وربما ثلاث مرات.

كنت أحيا بين نوبات اكتئاب حادة واهتياج مستمر يدوم مع الأفلام والصور البورنوغرافية وقراءة الكتب من روايات عاطفية وأخرى تراثية تخوض في علم الباه وشؤون النساء، وصولاً إلى المقالات اللغوية والعلمية الخاصة بالجنس التي تمعن في الأسماء ال٢٣٨ الإنگليزية لفرج المرأة حتى الوصف الذي لايحتمل للوضع العالمي، الوضع الكلاسيكي العادي للجماع، ليس اللوتس وعناق الماء والحليب والمقص والذكريات والملعقة والفراشة والكلب والفارسة وال٦٩ والكرسي والاحتلال بل الوضع الرسولي الذي كان المبشرون يرونه سماوياً ويبشرون به بين الأقوام البدائية كطقس جنسي مبارك من السماء دون غيره.

كنت أعاني من كل شيء وأتذمر من كل شيء، وثم لم أعد أعاني من أي شيء، كنت في التاسعة والعشرين، أصبحت قاسياً تماماً، أقرأ تشيخوف ولا أرد على أحد ولا أتكلم، أهز رأسي وحسب، مما يفهم من يكلمني بأنه على الصواب وأنني سأفعل ما يراه وأؤمن بما يقوله.

أما النوبات الحادة للإكتئاب فمن السذاجة القول أن مردها كان الشعور بالذنب، الشعور بالذنب كنت قد تجاوزته، كنت في الحقيقة أدمن الإثم محبة في الإثم نفسه، وربما انتقاماً لشيء ما، لا نزوة ولا خضوعاً للذة التي كانت قد حلت تماماً محل الخوف الذي يراود من يرتكب الإثم.

خلال عام من التحاقي بالجيش لم أعد واثقاً بالطبيعة البشرية، فليتكلم من يشاء ولثلاثة أيام وليستشهد بمحمد وماركس ويسوع، فلن أصدق أي شيء ولن أرى هؤلاء أفضل من الذين يتبعونهم، ولكن مع هذه القسوة كنت قد اكتسبت مرحاً غريباً، كنت أنظر بعين الشيطان، وأرى الخيط الأسود الدقيق بين كوميديا التجربة والمغفرة التي يدير بها الله مخلوقاته، وتراجيديا التعاسة البيضاء غير المقنعة التي يحاول بها البشر من خلالها أن يثبتوا أنهم ما زالوا ملائكة.

٢

كان لدينا في المستوصف، خزانة أدوية تفرغ خلال شهر من الأدوية التي كنا نستلم مخصصات الفوج مرة كل ثلاثة أشهر، وكنا فورا نعبئ منها حقيبة كاملة للعميد، وأخرى لنائبه، وثم يتوافد الضباط لنزودهم بالمرهم الشافي والمسكنات وحبوب الالتهاب والأربطة الضاغطة، أما الجنود فكنا نعطيهم حبتين حبتين مع وصفة يجلبها لهم الرقباء من مصياف أو حماه بعد أن يضاعفوا السعر، وكان لدينا في المستوصف سيارة إسعاف قديمة نسميها الصحية، ومع أول مريض اشتبهت في إصابته بالتهاب الزائدة الدودية وقررت نقله إلى المشفى العسكري تعطلت، أما كيف تعطلت، فبينما كنا نهبط من الجرادة نحو أم الطيور في الثانية بعد منتصف الليل رأيت دولابا يسبقنا على الطريق بعشرة أمتار، وطبعنا لم يكن سوى دولاب سيارتنا، أما عند العودة من حماه فلم ينفك دولاب بل كربج المحرك، لتظل الصحية شهرين في ورشة التصليح، أما المريض في تلك الليلة فأصبح على ما يرام، وكنت مصيباً في التشخيص، ولم يحصل سوء سوى أن زائدته الدودية انفجرت ونحن نركب الدولاب ليقضي حوالي اسبوعين في المشفى وهذا كان مسراً له بعد أن حصل على استراحة طبية لمدة شهر.

في الصباح التالي لحادثة الصحية تلك، حضر هو إلى المستوصف بكتف مخلوعة بعد أن أجبره النقيب على إجراء تمرين الثابت عشرين مرة رغم أن لديه إعفاء صحيا، كان يرتدي شيالاً قطنياً أبيض، يبتسم وهو يتقدم نحوي بكتف مائلة سأتذكرها طويلاً، عرفني عليه رقيبنا وكان رقيباً أيضاً، أعطيته أربعة حبات مسكن مع إحالة إلى المشفى وإعفاء آخر من الرياضة المجهدة وهذا ما لن يحصل، سيعود بعد ثلاثة أيام وأيضاً بكتف مخلوعة، لأعطيه اعفاء آخر يمزقه النقيب مرة أخرى ويقول له، خراي عليك وع الدكتور الذي هو بطبيعة الحال، أنا، ولا أحد غيري.

٣

في الشهر مرة كنت أزور السجن عند الباب الرئيسي، وكانوا السجناء يقفون بالشورتات، ويكون غالبهم مصاباً بالجرب، عرفت من الرقيب والمساعد أنهم ينيكون بعضهم، وحين جلبوا أحدهم في منتصف الليل، وكان يعاني كما أدعوا من نوبة صرع، وكنت أعرف أنهم يتمارضون كثيراً، لم أعطيه إبرة مهدئة، إبرة الديازيبام، بل سحبت قليلاً من ماء السيروم وحقنته بسرنغ في الإلية اليمنى فهدأ فوراً، فعرفت على الفور أنه يكذب، فاقترب منه رقيبنا وقال له: اشلح ولك، فشلح الشورت، قال الرقيب: هادا إير زلمة، ثم وشوش في أذني، هادا اللي بينيكوه بالسجن، كان أيره صغيراً وغافياً تماماً، ورأيت آخرين غيره، أما هو كان شيئاً آخر، نظيفاً، لا يتكلم كثيراً، الهيدفون في رأسه، ومرة واحدة رأيته يومئ لأمره دون أن

أدري، كان جميلاً حقاً، نحيفاً وأبيض ولا شعر على صدره سوى زغب أشقر خفيف، قال بأنه يظن أن داخل كل رجل امرأة، كما أن داخل كل امرأة رجل، وحين يكون لا دين ولا منظومة أخلاق فاسدة، ويكون الرجال معاً أو النساء معاً، فإنه متأكد أن كل سيلف على وليفه ولا شرط أن يكون من جنسه، كان لبقاً وحين تكلم عن المثليين، تكلم وكأن الأمر لا يعنيه، شعرت بالتقزز حين قال: هناك غاي بياكل، وغاي بيطعمي، لكني استلطفته حين أكمل: المهم هو الحب بين الطرفين، ثم تغير الحديث إلى تناقضات أخرى وبينما كان رقيبنا يعد الشاي، حط يده على يدي بحركة بدت عفوية لحظتها وقال: دكتور أنتا بتضحك وبتبين جينتل، بس جواتك في وحش، وإذا حبيت شي يوم ما راح تحب إلا كوحش.

لم أسحب يدي، لكن أغمضت عيني وقلت، ما بعرف.

فيما بعد سأعرف أنه بينما كان يمسك يدي بيده، أصابتني قشعريرة خفيفة، ليس انتصاباً، بل تقلصاً بطيئاً في جلد الخصية صاحبه توتر بسيط سيطرت عليه على الفور، حينها كل ما جرى كان دورانا في سوائل البدن، لم أسمح لشيء آخر، لأنني لم أكن أعرف تماما أين أتجه.

٤

كان في الواحدة والعشرين، تخرج من معهد للغة الإنكليزية، ولأنه كان مغرماً بالورق، أصبح من المعتاد أن يحضر إلى خيمة الجنود بقسمنا على بعد خمسة أمتار من المستوصف، والمستوصف كان يتألف من صالة انتظار وغرفة الفحص وغرفتي للمنامة، واحدة للأطباء كنت أشغلها أنا، وأخرى للمساعد والرقيب، لعبت معهم ذلك الخميس لعبتين، ثم قمت لأنام وتركت له مفاتيح الغرفة ليأتي متى أنهى اللعبة بعدما أتفقنا أن نقضي عطلة نهاية الأسبوع معا في مصياف، أنا وهو ورقيبنا الممرض.

يذكر فرويد في كتاب له حكاية راهبات كن يمسدن أعضاء الأطفال الحميمة حين يجافيهم النوم، ولكن يبدو أن الأفكار الجيدة لا تكون جيدة دائماً.

كانت يدي أسفل بطني وكنت ما أزال أحدق في الظلام حين دخل، ويبدو أن هذا راق له، فتجرأ وكأنه كان ينتظر شيئاً كهذا، خلع عنه كل شيء، ثم أخرج من جيب معطفه العسكري ماسورة جيل، أحكم إغلاق الباب، اقترب مني وبدأ يدهن كفيه.

لم أؤنبه، لم أقل له في البداية أنك ستمرض من البرد، أو ماذا تفعل أو اذهب من هنا، كل ما فعلته، استسلمت ليده وبقيت أحدق في الظلام.

لا أدري بماذا كان يفكر، حينئذ كنت أفكر ببقايا الخراء في عمقه، والذي من الممكن أن يلتصق بي، الأمر كان لذيذاً أشبه بما تفعله يداي كل يوم، لكن حين كان يحرك مؤخرته دورانيا، كان يضغط على خصيتي ويسبب لي ألما خفيفاً مزعجاً يتحالف مع القرف الذي كنت أحس به فلا يبقى من اللذة سوى القليل على هيئة شفقة سوداء نحو هذا الشبح البائس العاري وهو يدق باباً لا مرئياً في ظلام اللذة لأقذف في داخله، وفعلت لكنه كان سريعاً نوعاً ما، ليلتها، لم نتكلم أبداً، كأنما يعتذر، نظف لي بالكلينكس والكولونيا وبقي جالساً عند السرير يمسك يدي قريبة من فمه، كأنما كنت أرمم خذلاني له بحنان غير منتظر مني، أخذت أربت على رأسه فقام عن الأرض على الفور ودفن نفسه بجانبي دون أن ينظر إلي.

٥

كان يرتدي الكلاسين النسائية وحين قلت له، لولا هاد الشعر اللي ع طيزك، كان قد حلقه في المرة اللاحقة، أحبني لكني كنت أنيكه كحيوان، دائما بالوضع نفسه، مرة استجبت له فظل يمص لي ثم استدار وأمسك بطرف السرير وانحنى دافعاً مؤخرته للخلف، فأدخلته وأنا أحضن ظهره، وبقيت ألكزه خمس دقائق ثم تمددت على الأرض فجلس فوقه وظل يلعب حتى قذفت، أظن أنه مر علينا معا ما يقارب الشهر نكته خلاله اثنتا عشر مرة، وكنا متفقين على كلمة سر، افتح يا سمسم، افتح يا سمسم، وتنزاح الصخرة، وآخر مرة كانت بينما كنا نلعب التريكس في خيمة العساكر، كنت أراقب بطرف عيني ساقيه الممدودتين جانبا على طول البطانية، وذكرت خلال الحديث الذي لم أعرف كيف بدأ، كيف أننا كنا ونحن صغار نتذاكى على بدر الغبي، ونرى الذكي أنيس جميلا برأسه المدور أعلى قميصه، ولم نكن نفكر مطلقا في شيطان الوقت، ثالثهما الذي لا يغفو بينهما، ثم قلت أنه رغم كل شيء يبقى "افتح يا سمسم" أفضل برنامج على الإطلاق، لحظة وكان قد ترك الورق من يده وخرج، فخرجت وراءه، وظللنا نمشي حتى اجتزنا حدود الكتيبة وحدود الفوج، كان الجو باردا، وكنت قد بدأت أشتاق إليه وأرغب أن أكون قريباً منه دائماً، توقفنا على التلة التي ترى منها على بعد ١٠ كيلومتر المصابيح الكهربائية المضيئة أمام منازل أم الطيور، أمسك يدي وأخذ يغني:

You only see what your eyes want to see

وحين وصل إلى المقطع الذي أفضله:

Love is a bird

she needs to fly

طوقته بذراعي و أحنيت رأسي نحوه حتى لامست وجنته اليمنى بأنفي، ثم أخذت أقبله في فمه.

أفكر الآن أنه من السهل أن ينيك رجل رجلاً، أما أن يفكر رجل في فم الرجل الآخر، فهذا يعني أن عالماً كاملاً في داخله قد بدأ يتهاوى،

تلك الليلة، كنت المعطف الأسود الذي يتفتت إلى طيور سوداء في فيديو كليب مادونا، كنت أضمه بذراعي لكنه كان يضم الطير الذي في قلبي، كان ينفخ على رأس الطير وهو يوغل لسانه في فمي لأقبض عليه بكل القوة الرهيبة التى في الشفتين.

كنت أظن أنني على حافة هاوية، استدرت إلى الخلف لأرى أنني على حافة هاوية أخرى.

٦

كنت جالساً على كرسي بلاستيكي قرب مشتل النعناع الصغير أمام المستوصف أقرأ قصة (توافه الحياة)، وأسجل على الهامش ملاحظة لتشيخوف، "العبقرية هي معرفة الحياة "، وكنت وصلت إلى حيث يقول الطفل لعشيق أمه: "إن بابا يقول: أنتم الأطفال تعساء، أنتم تعساء، وأنا تعيس وماما تعيسة " حين جاء العميد في سيارة اللاندروفر وقفز منها مسرعاً إلى الداخل، كان يعاني من ألم حاد في الخاصرة اليمنى ورغم أنني طبيب أسنان إلا أنني كنت أعمل طبيباً عاماً، أشخص وأسعف وأستقبل ما لا يقل عن ستين مريضا باليوم، وتمكنت خلال عام من أن أصل إلى الدرجة التي يستنجد العميد بي، حكيم بدي أموت، ناسياً الأسبوع الأول الذي كنت أرتبك فيه وأنا أنفخ الاجاصة المطاطية لجهاز الضغط.

فكرت وأنا أجس خاصرته، الألم ما يجعلنا نتمسك بعشبة، وضغطت بأصابعي فانحنى وأغمض عينيه، وعرفت ما لم أكن أخطئ فيه: حصاة.

ناولته الباكتريم فورت وديكلوفيناك الصوديوم، لكنه ظل ينظر إلي، فقلت على الفور: ولا بد من صورة شعاعية.

خلال ساعة قادنا سائقه لنكون في المشفى العسكري بحماه، نصعد ونهبط ونمشي في الممرات دون أن نجد طبيباً في قسم الإسعاف لتمر ساعة كاملة حتى نقف بجانب الطبيب المناوب في قسم البولية وهو يشير بقلم شنيار إلى كتلة بيضاء في الحالب الأيمن بحدود ٢ سم ذات حدود شئزة مؤكدا دقة تشخيصي وصواب ما ذهبت إليه.

في تلك الليلة سرقت بارودة العميد.

كان العميد يتحرك كمعتوه، البارودة شرف العسكري، وأن تسرق بارودته شخصياً فتلك إهانة لا تحتمل، حققوا مع الحرس في تلك الليلة، مع العساكر الستة الذين يخدمونه، ثلاثة منهم كانوا مفرغين في بيوتهم مقابل اثنا عشر ألفا سورية يأتوون بالشهر مرة واحدة، يدفعون ويذهبون إلى أهاليهم، هؤلاء تم استدعائهم أيضاً، اجتمع مع كل ضباطه وصفوف ضباطه، وقال : البارودة لازم بترجع، والله لأنيك كس أمو الحيوان.

كانت الأمور تسير دون جدوى، وذات يوم ونحن في المستوصف، جاء إلينا واصطحب معه مساعد المستوصف، وكان من مصياف وكان المساعد قد أخبره عن وجود مزار الشيخ أبو طاقة، حيث جدار فيه فتحة، والأهالي يؤمنون ان الأبرياء يمرون من الفتحة دون استعصاء، أما المذنبون يعلقون ولا يستطيعون أن يخرجوا، والمسألة مجربة، يمر البريء متل ما بتطلع الشعرة من العجين، كما قال المساعد، أما الزناة والقتلة والسارقون والكذابون فيعلقون في الطاقة، ولو كان الواحد منهم رفيع متل الأصبع، أضاف، انطلقت سيارة العميد وبجانبه المساعد دليلا، وخلفهما انطلقت سيارة أخرى يسوقها ملازم أول وكان في الخلف عشرة جنود مقيدون، جنود بائسون يجلسون باستكانة كحيوانات وديعة تساق كيفما يشاؤون.

ثم تسلم الأمن العسكري في حماه الملف، حيث اعتقلوا واحدا وعشرين شخصاً كان هو واحد من بينهم، وقادوهم إلى السجن ليدخلوا في متاهات الاعتراف بذنب لم يرتكبوه ولكن لا بد أن يعترف أحد ما لتكتمل حبكة العدم المظلم، ويسترد الشرف، واختفوا بعدها ولم يكن أحد يأتي على ذكرهم وكأنهم لم يكونوا في يوم ما.

أما أنا فكنت قد مضيت أبعد من أقول أنني كنت أشتاق عليه، كنت أفكر فيه دائماً وشيئاً فشيئاً كنت أغوص في الكوابيس، لم تكن كوابيس كما تكون عادة، لم يعضني كلب أو ذئب، لم أكن أمت، أقتل، أقع من جرف، ولم أكن أرى ميتاً أو أرى جنياً له وجه إنسان وقدما الماعز، أو شياطين أو مسوخا بأذرع كثيرة وعين واحدة في منتصف الجبهة، كنت أرى الخراء، أكوام من الخراء، أدخل مرحاضاً يشبه التواليت في مدرسة الخدمات الطبية بحرستا حيث قضيت ثلاثة أشهر في دورة الأغرار، أرى ستة مغاسل، وفي كل مغسلة خراء، من مغاسل مغلقة مسدودة تماماً لكثافة الخراء العفني والأصفر الطري، ومغاسل يكون الخراء فيها قطعاً اسطوانية صلبة متروكة على الأطراف، وأحياناً يكون مسحات بنية أو سوداء تغطي بورسلان المغسلة، أغلق أنفي بيدي وأفتح الماء، ويختلط الماء بالخراء ثم أرى بعض الحنفيات معطلة، وأظل أدور بين المغسلة والأخرى حتى أستيقظ، أظل ربع ساعة في السرير، لا أحس سوى بطعم الصدأ في فمي ثم أجر نفسي نحو الباب أجلس عند مشتل

النعناع، أقطف أوراقا وأدعكها بيدي، وأعود للداخل لأخرج ليمونة من البراد وأعملها شرائح وآكلها مع الملح، كي أسترد مزاجا أستطيع أن أكمل يومي به دون أن أتقيأ.

في تلك الليالي لم أجد عزاء سوى مع تشيخوف وكنت أنهيت مجلدات تشيخوف الأربعة، ترجمة أبو بكر يوسف، إصدار دار رادوغا، ذات اللونين الأخضر والأصفر المائل للذهبي، فعدت أجتر لأقرأ مقدماتها مرة أخرى، فأحيانا كثيرة كنت لا أنام حتى الصباح كي لا أرى تلك الكوابيس.

٨

كانت قد تجاوزت الثالثة فجراً في يالطا، كان تشيخوف يتنفس بصعوبة وهو يتمدد بهدوء على جنبه الأيسر، ثم خرج صوت من حنجرته ومال رأسه، وكان حوله في غرفة الفندق ثلاثة أشخاص يقومون بما تفرض عليهم أدوارهم: الطبيب إيريك شفيرير الذي أمسك المعصم وثم أغمض العينين، طالب طب حاول تصحيح وضع الرأس الذي بقي رغم ذلك مائلاً، وأولغا التي تحركت نحو الطبيب وهزته من كتفيه: قل إن ذلك ليس صحيحاً، كنت أقرأ وأكاد أرى، ولم أنم تلك الليلة، وكنت على يقين أنه ثمة تفصيل لا يزال مفقوداً، وربما بنقصانه يضفي ضباباً رومانسياً على المشهد برمته، في الثالثة فجراً من 15 تموز 1904 يتنفس تشيخوف بصعوبة، تطلب أولغا من طالب الطب أن يستدعي الطبيب الذي يسارع على الفور ويستخدم الأوكسجين وثم يتوقف للحظة ويطلب زجاجة شمبانيا، تشيخوف الحكيم الداهية ساخراً، الطبيب نشيطاً وضعيفاً في مرضه، من قد بصر حتى الرابعة والأربعين كل القذارة التي تتراكم في مؤخرة الحياة، أدرك ما يمر به، لكنه كان يشعر بمرح غير طبيعي فعلق بخفة بدت لحظتها بائسة بقدر ما بدت مؤلمة: لم أشرب الشمبانيا منذ وقت طويل، وشرب الكأس دفعة واحدة وتمدد بهدوء على جنبه الأيسر وكان الطبيب قد أقفل الباب وخرج لتوه إلى الممر حين هتف تشيخوف خلفه بالألمانية التي يتقنها قليلا: أنا أموت، وثم، أنا أموت، كررها بالروسية، كأنه يختبر ملمس الموت في اللغتين، كأنه يحاول بصوته أن يترجم الموت لمن حوله.

في التاسعة كنت أقف لأهتم بالطابور الطويل من مرضى الگريب والرضوض والتهاب الأمعاء، وكنت ما أزال أفكر كيف أن إدارة الفندق الذي كان يسكن فيه تشيخوف لم ترض بنقله في حمالة لئلا يضايق الموت سائر النزلاء، فوضعت الجثة في سلة غسيل، حينما رفعت رأسي لأجده واقفا زائغ العينين وخلفه من عرف نفسه على أنه أخوه الأكبر، كان قد حلق على الزيرو ويرتدي بنطال جينز شد حزامه بطريقة مضحكة بحيث يبدو وكأنه مبروم في المنتصف، قال الأخ أنه لم يعد يتذكر شيئاً، وأنهم استلموه من قسم التحقيق على هذه الحالة، وأخبروهم أنه أصيب بالسحايا ونجا بأعجوبة، كان يبدو جميلاً أكثر من أي وقت مضى وهو

يضحك ضحكته الخرساء، وفيما كنت أوقع قرار إحالته إلى مشفى تشرين العسكري بدمشق لإقرار حالته النفسية، اقترب من الطاولة ولمس بسبابته ظهر يدي، قال الأخ: كأنه عرفك، نهارها لم أتغد، ولم أتعشَ، ولم أدخل خيمة الجنود لألعب التريكس، بقيت أتمشى المسافة المنحنية بين سرية النقل وسرية المقر، أستعيد صورته وهو يتبع أخاه كأي أبله وثم وهو ينظر للخلف أكثر من مرة، دخلت المستوصف وقلت للرقيب: تصرف مين ما إجا، خلاص، من هلأ ورايح، اعتبرني ماني موجود،

ودخلت لأجلس على السرير المعدني لساعات طويلة، أسند رأسي بين يدي ولا أفعل شيئاً سوى أن ألمس وجهي، عنقي، عظم الترقوة، وأحدق في ركبتي، في لطخة داكنة على البطانية، في قوائم السرير، في القفل الصغير على خزانة المعدن، أينما نظرت كانت تصبح نقطة عمياء، أينما لمست كأنما كنت ألمس جلد شخص آخر.

شوكران

ا

كان لديه أقفاص من الكنار، وحساسين تصله من جبل الأكراد، وكلب هجين يسميه شارلو، وكان شارلو يجمع بين شراسة أمه الذئبة وود أبيه الكلب، وظل محتفظاً به حتى أشتراه منه ضابط متقاعد كان يعمل مستشاراً في قصر الوالي.

كان يعلق للكنار مراجيح من عيدان الخشب، يمد تحتها الخيش وينظف الأقفاص في الظهيرة، يسقيها ويطعمها معا، لكل كنار نصف بيضة مسلوقة، فنجان من الماء وفنجان من بذور الخضار، وحين قالت له: ما بدي كلب، بيضل بيعوي كل ما مل، و ما بدي كناري لأنو بيزعق ع الفاضي والمليان، رد وهو يهز رأسه: خيتو، اللي ما عندو مروة، بيربيلو قطة، وثم حكى لها عن قطته الفرنسية، صغيرة وبيضاء، لكنها من النوع الذي لا يسمع، فاقتربت من المائدة حيث كان جالساً على كرسي من الخيزران، ساقا على ساق، وقال: دخيل الله بدي قطة، فحذرها: بس القطة نفسها مو نضيف، بتمرض، ويمكن تعملك أكياس مي، ردت على الفور: معليش، فأكمل ضاحكاً ضحكته الخفيفة: ويمكن ما تجيبي ولاد، فردت كاترينا: رضيانة فايق آغا، بس بدي القطة، فصبر على قطته الحامل التي كانت تجر بطنها الذي ينتفخ يوما بعد يوما، وتموء كأي ذات روحين، بألم مقدر ولا بد أن تحتمله، تموء في القبو، على الدرج، في غرفة العلية، وفي الركن القبلي الغربي من الحوش، في مكانها الترابي الأثير بجانب جذع شجرة الأنغيدنيا حيث ولدت بعد فترة أربعة فراخ، أربع قطط صغيرة بعيون سوداء رطبة، أثنتان بيضاوتان تماماً، واحدة شقراء، والرابعة نصف شقراء ونصف بيضاء، تلك هي التي حملها صباح ذلك الأثنين مشيا من ألمه جي وعبر سوق النحاسين هبوطاً على طول جادة الخندق لينعطف شمالاً ويدخل الجادة ١٤٢ في بحسيتا، وليقف تماماً على باب الدار التي كانت تعمل به، ومتجاوزاً الباترونة يحييها بالكلمة الوحيدة التي يعرفها من اليونانية:

كاليميرو كاترينا، وثم يكرر اسمها بشغف من يحب ولا يستطيع أن يخفي، يكرره وهو ينزل الثلج الفرنسي الأصم برفق على ساعدها الأيمن ولكن بالكردية هذه المرة:

كاترينا، كاترينا أز چه ته حزدكم.

II

كان فايق آغا سليل عائلة من ملاك الأراضي في الجبال لكنه كان الابن النحيل المريض الذي تبقى عين الأب في حيرة عليه حتى تغمض، أشترى له بيتا في ساحة الألمه جي ليكون لا بعيداً ولا قريباً من قبر جد العائلة في أقيول، ومن " فقرائنا " في حي الأكراد بين قسطل الحرامي والحميدية، وبينما كانت كاترينا قد عرفت الجسد، جسدها كيف يصحو وينام، وجسد الآخر كيف يجوع حين يتألم وكيف يتوحش حين يجوع، كان فايق في الخامسة والعشرين ولا يزال طرياً ولا يعرف سوى الحب في الأغاني، كيف تندم بلا سبب، كيف تنتظر أحدا لا يجيء، كيف تقيم الأميرة وليمة من لحم الخروف وثم تقدم حلميتها على الرز المطبوخ فلا يخطئ فم المحارب رائحة يدها، كيف تأرق سبعة أيام وتنصت إلى حكاية تنسل من حكاية أخرى، وكان يرغب أن يخبرها أول مرة بذلك حينما دخل عليها في البيت العمومي، لكنه أكتفى بأن سألها عن اسمها، ظانا أن الاسم مفتاح من الذهب لولوج الجسد حتى آخره، بالطبع كان مخطئاً، وبالطبع عرفت كاترينا ذلك بحدسها حينما دخلت عليه، ووجدته عارياً ويكاد يرتجف، لكنها أرادت أن تقوم بعملها كما ينبغي وشلحت أمامه كما تفعل أمام أي عابر آخر، رتبت شلحتها وسوتيانها وكلسونها على كرسي الخيزران بجانب النافذة، ووقفت أمامه بجبروت من تعلم كيف تسوق الأمور إلى النهاية، لكن النهاية كانت أسرع مما تتوقع، فلم يكد يقبل مؤخرتها، ولم تكد تجلس على حافة السرير لتمسد له حتى كان قد قذف في يدها، ارتبك فايق ولم يجد ما يقول ليستر خذلانه سوى أن يردد بحماقة، أنا آسف، أما كاترينا نظفت يديها بمنديل أبيض بكل هدوء، وكانت ستبدأ بارتداء ثيابها حين استدارت خلفها، وعرفت أي رجل هو، فاقتربت منه وجلست على السرير بجانبه وأخذت تنظف رأس حيوانه الغافي في حرير الخيبة، بالمنديل نفسه، ثم ضمت وجهه بين يديها ودفنته بين ثدييها ومالت عليه حتى انسكب شعرها على كتفيه حتى منتصف ظهره النحيل، لم تكن تعرف حينئذ أية بذرة ألقت وفي أي أرض ألقت، لتبدأ الحياة تنبت مرة أخرى في الأغاني السقيمة، كيف تنتظر أحداً ما تعرفه تماماً، كيف لا تنام كي تظن أنك تحرسه، وكيف يمكن لمحارب أن يخوض حربا لم تكن حربه، وثم لا يجد ما يقوله لفمه والأميرة تترك حلمتيها تنبتان على شجرة الوليمة.

III

في اليوم التالي أرشدته بياز خانم إلى العلية على الفور، كأنما كانت تنتظره وكأنما كانت على علم بأنه سيأتي لا محالة وأنها تعرف بأمر سره الصغير، بل وربما أخبرت العرصة أيضاً والعرصة أخبر الجندرمة، غمزته كاترينا بعينها اليمنى حين رأته يخلع مع إشارة إلى السرير، أن يتمدد، ثم اتجهت إلى الخزانة وأخرجت فنجانا خزفيا، لم تكن ترتدي شيئا تحت شلحة الحرير الأزرق الشامي ذات الياقة الواسعة على الصدر وحمالتين على الكتفين، بحركة واحدة

شلحته من فوق الرأس، ثم غمست أصابعها في الزيت ودهنت بيدها اليسرى ما بين ساقيها، وتناولت أيره ودهنت له الرأس، وانحنت عليه لتقبل حلمته اليمنى قبلة خفيفة وثم وهي تباعد بين ساقيها وترفع مؤخرتها قالت:

إذا دخل الراس، بيدخل كله،

وأضافة مداعبة: لا تخاف على الجذع، فايق آغا، ما بينكسر.

وحين عاد إلى البيت، دخل الحمام وأطال المكوث فيه، بالليف والصابون الغار وحجر الخفان والماء الساخن، ظل يفرك ساعتين خلالهما حلق شعر الإبط والعانة، وثم نظر لبطنه وذراعيه وصدره وفخذيه، ورأى كل ما فيه جميلاً، كأنما كانت المرة الأولى التي يرى فيها جسده، أو كأنما يرى جسدا آخر، والأحرى أنه كان يسترد جسده الذي كان يكاد أن يختفي من الإهمال ونسيان ما له.

بين عيدي الفطر والأضحى كان قد أصبح مواظباً على المحل العمومي، وبعد شهر كانت كاترينا تصحبه يوم الإثنين بعربة حنتور ليشاهدا فيلماً في كوزموغراف في باب النصر، أو تينوغراف مقابل فندق بارون، أو يتمشيان حتى الأورينتال في باب الفرج، ولم يزر جبل الأكراد إلا حين استدعاه الآغا وحذره من أن يتحول إلى سيفونجي ورغم ذلك لم يمكث فيه سوى يومين، وفي اليوم الثاني من عيد الأضحى كان واقفاً في العلية، يمسك عنقود عنب أسود ويناول فمها الحبة بعد الحبة، لتقبله وسلاف الحبة في لعابها، وحين انتهى العنقود، كانا على السرير في أجمل منظر بالوجود، كما تقول الأغاني، وحين قامت لترتدي ملابسها، جذبها نحوه وقال كمن سيبوح سراً: من يومين شفتك بالمنام، وربما لأنها المرة الأولى التي يروي فيها حلما، جلست لتصغي إليه:

كنا بمزار النبي هوري، وكنت حامل هدهد ع إيدي، وكنتي وراي، وكان الهدهد بيطير، بيلقط حصاية وبيحطها ع كفك، وكنتي بدك تلزقي الحصاية ع حجر الحيط، وكانت تطب ع الأرض،

وأكمل:

وصار الهدهد يطير والحصى يطب، وبعدين انتبهت أنو نحنا بباب الفرج، ولحظتها طار الهدهد باتجاه الجميلية وصار يناغي بصوتك وهو عم يبيعد، وطلعت وراي وما لقيتك، وما لقيت شي حولي، بس صوت ساعة عم بتعمل، تك تك تك.

ضحكت كاترينا وقالت:

والتكتكة يا ترى من ساعة إيدك ولأ من ساعة باب الفرج؟

لكنها وهي تكمل ارتداء ملابسها، أغمضت عينيها بحركة تطمين سريعة وقالت:

مافي شي، حبيبي، بس لا تصدق الأغاني.

واستدارت نحو المرآة.

من بحسيتا إلى بوابة القصب إلى الجديدة إلى قسطل المشط إلى ألمه جي، لم يكن فايق آغا ذلك اليوم يفكر في باريس، أو المنام، أو الأغاني، كان يفكر ب "حبيبي " كيف تقولها كاترينا.

IV

من جزيرة كيوس التي كان فيها قانون في زمن قديم يقضي بأن يتجرع الشوكران السام من بلغ الستين من العمر حتى يكفي الطعام أهل الجزيرة، أتى الأب، لم يكن كهلا لينقذ نفسه بالنفي، ولم يكن ذلك القانون قد بقي ومضى عليه زمن بعيد، كان شابا تزوج في أثينا وثم انتقل إلى القسطنطينة وليستقر لاحقا في أزمير قبل أن يحتلها اليونانيون في حربهم المقدسة لاسترداد آيا صوفيا ويمارسوا خلالها القتل والاغتصاب والحرق، ويرتكبوا مجازر لا تقل عن تلك التي أرتكبها الأتراك بحق اليونانيين في كل منطقة البحر الأسود والتي قال عنها الحاكم التركي في سيواس نفسه بأنها كانت رهيبة حتى أنه لم يستطع تحمل الإبلاغ عنها، وقبل أن يتبع اليونانيون سياسة الأرض المحروقة في أزمير ويعودوا كان قد خرج منها ليلقي بنفسه في طريق لا يعرف أين وكيف سينتهي حتى وجد نفسه ذات يوم بحلب في مخيم أقيم على عجل وبيده قصعة، يحدق بعين محمرة في لطخة على ظهر القميص الذي قبله، عجوزاً مثيراً للشفقة يقف على رتل الطعام وخلفه ابنته الشقراء، كاترينا ذات السبعة عشر عاما التي كلما ردت شعرها الأشقر للخلف بانت شامة على صدغها الأيمن، ذاتها من سيشير إليها والد فايق آغا بعد سنوات، صباح اليوم الأول من عيد الأضحى حين أنتحى بإبنه جانبا و أخبره أن يستعد للسفر إلى باريس ليدرس الموسيقى كما كان يشتهي، كان الآغا الكبير يمسك عصا من شجرة الرمان وينكش برأسها التراب في حركة لا تعني سوى أنه لا يعرف ماذا يفعل، لم يكن ثمة حديث بينهما سوى أصوات تنفس، حف كف، شهيق زفير، قبل أن يرمي العصا على الأرض ويدور نحو قلعة النبي هوري نحو اليسار وينظر حتى حدود تركيا ويقول بهدوء بارد، دون غضب ظاهر وكأنه ينصح أحدا ما لا يخصه، وليس بجانبه:

شرميتا چه مه نه كيمن،

لا ينقصنا قحبات.

كان الدكتور أسادور ألتونيان أول من استقدم جهاز أشعة رينتيغن إلى البلاد وأول من استعمل البنسلين أيضاً، وخلال حياته المهنية في حلب عالج ٩٩٦٢٨ مريضا أحدهم كانت كاترينا تيودوراكيس، والحقيقة أنه لم يفعل لها شيئا يذكر، في ذلك اليوم حين رأى الضباب الأزرق على الوجه، وجس ما تبقى من النبض في المعصم الأيمن، بالعين الخبيرة وحدها عرف أنه قد فات الأوان، ولم يبق سوى الإذعان.

خلال فترة ليست طويلة في المنزول، أصبحت كاترينا تدرك تماماً ما تملك، كانت بياز خانم حين تتكلم عنها، تترك بيديها قوسين كبيرين مشيرة إلى ردفيها الممتلئتين، وتقول: اسم الله وفوقون، إيد خضرا وعقل٢٤ قيراط، فكاترينا كانت قد زينت الدار بالياسمين البلدي وكانت تغير التراب وتضيف مسحوق الثوم والزبل حول نبتة اليوكا، وحصى سوداء وبنية ومزرقة ومخضرة حول ساق الصبار، وتنظف قاعدة أوراق كف الدب بالقطن ورقة ورقة وكانت تتصرف وكأن المنزول بيتها الوحيد وهذا بالضبط ما كان بعد دفن الأب في تراب الغرباء، كانت قد كبرت فجأة ولم تكن تخجل من عملها، وكل ثلاثة أشهر كانت تزور سوق الصاغة لتضيف إسوارة أخرى إلى معصمها الأيسر، ثم أنها كانت تعرف ماذا تريد تماماً، وماذا تمنح ولمن وكيف، كانت ترضي الأفندية والأغوات كما ترضي الجنود والطلبة، تحرص على نظافة جسمها، ولا تفوت الذهاب إلى حمام الهنا، ولا تفوت فحص الأربعاء الذي كان يجريه الأطباء لهن دوريا في المشفى الصغير الذي أقيم مقابل المنزول.

في اليوم الثالث من الأضحى كانت في أرض الدار تلف أوراق اليالانجي حين ذكرت لبياز خانم تلك الذكرى القديمة، مرة أخرى، كانت في السادسة أو السابعة، اصطحبها الأب إلى الطبيب الأشهر في أثينا حينذاك أملا في علاج للسلس البولي الذي كانت ما تزال تعاني منه في الليل، حين خرجا من العيادة اتجها نحو مونستيراكي وهناك حملها فوق عنقه وصعد بين أشجار الصنوبر نحو أكروبوليس، وبينما كان يقف على صخرة ويشير بسبابته نحو تلة بعيدة، ويقول :كاترينا، بيتنا هناك، هناك بيتنا حيث تغيب الشمس تماما، كانت الطقس يميل لبرودة خفيفة مع الغروب، وكانت قد شربت عصير الليمون في الساحة، فلم تتحكم بنفسها وتبولت، أخذ الأب يتحسس السائل الحار بيده ويكمل وكأن شيئاً غريباً لم يحدث: هل عرفت، هناك حيث سرب الطيور، كانت كاترينا تنظر إلى التلة وتكرر كببغاء صغير: نعم بابا، عند الطيور، عند الشمس، لم تسمع تماما ما دمدمت به بياز خانم عزاء، كانت قد انهت آخر ورقة عنب حين أخذت تبكي، ثم قامت وهي تحمل طنجرة اليالانجي وخطت نحو باب المطبخ، أسندت ظهرها للباب، أمالت كتفها قليلا، أدارت المقبض بكوعها اليمين ودفعت الباب بمؤخرتها وغابت في الداخل.

VI

في ذلك الوقت الذي كانت كاترينا تعض على شفتها السفلية خفيفاً، وتضيق عينها اليمنى وتفكر وهي تسند وركها على زاوية المائدة في المطبخ وتراقب بقبقات الماء يغلي ويزيح للحواف ذرات النعناع والفلفل الأسود والبهارات ودبس البندورة، كان فايق آغا قد خرج من باب منزله وقبل أن ينحني على اليمين ليسير بمحاذاة حمام ألمه جي، توقف للحظات وأخذ ينظر للساحة نحو سرب الحمام الذي كان يربيه بيت الهيب فنحو الأعزب الضرير الذين يؤذن أحياناً حين يغيب الشيخ عبد الرحمن أفندي الجندي، كان يخرج من الباب الأخضر الغامق الذي تزينه كتابات ترحب بمن سيعود من الحج لتقوده عصاه حتى جامع زكريا، في ذلك اليوم كان النسيان ما أودى بفايق آغا في متاهة الندم وطلب الغفران لأجل ذنب لم يرتكبه.

كان ما يزال يظن أنه لم يغادر الأربعاء بعد حتى دخل زقاق بحسيتا، وأشار له حارس الجندرمة على باب المنزول بوجهه إلى صف العساكر الطويل ينتظرون دورهم في صف اللذة، مذكرا أنه خميس العساكر، كأحمق دمدم: أها، فكر للحظة مدفوعا بغيرة مضمرة، العساكر يجب أن ينيكوا بعضهم أو البغال، ثم دار إلى الخلف وأتجه إلى باب الفرج، بقي أكثر من عشرين دقيقة يتأمل الساعة العليا المعلقة في الهواء التي كلفت الأتراك ٦٠٠ ليرة عثمانية، معجزة بكر صدقي وشارتيه أفندي، من القاعدة العريضة حتى العقارب السوداء وهي تدوخ في عماء أبيض لجرد ما لا يجرد، الساعات الساعات، أخذ يكلم نفسه مردداً وهو يلج المقهى في الطابق الأرضي من فندق الشهباء.

لم يكد يدخل المقهى حتى سحبه ناظم أفندي، من كان يزور جبل الأكراد في الصيف ليصطاد الحجل مع صديقه الآغا الكبير ومن رشح لأبيه منزلاً في ألمه جي ليسكنه الابن الذي لا يحتمل قسوة الجبل ومخافة أن يخطفه أحد أعداء الآغا بفكرة أو سلاح، لم يكن ناظم أفندي يكبر، وكان ما يزال يرتدي البرنيطة المدورة الكحلية، لكنه أصبح يضع نظارات مدورة، ومع شاربه المدبب وخديه الموردتين وغليونه كان يبدو كأفرنجي تماماً، قاده إلى آخر المقهى ثم تبعه صاعدا درجا لولبيا حتى دخلا قاعة مطعم الفندق، طلب ناظم أفندي الكباب العنتابلي على طبقة من البقدونس المفروم المملح المفلفل مع البصل والطماطم المشوية، وبجانبه نبيذ بوردو وعرق بيروت وأخذ ناظم أفندي يتكلم، يأكل بشراهة ويتكلم برضا، وكان فايق آغا يأكل قليلاً دون شهية ويشرب ببطء لكن بجرعات كبيرة، يراقب فم ناظم أفندي ينفتح وينغلق، تكلم عن العلم والدين والروح والشعر والفلسفة والمسرح وآستانة وفيينا وباريس وڤينسيا، وبينما كان يتكلم كيف أنه كان يصاحب الشيخ كامل الغزي وجبرائيل الدلال ورزق الله حسون وقسطاكي الحمصي إلى الجديدة، إلى الصالون الأدبي الذي كانت تقيمه مريانا مراش في منزلها بحارة الحصرم القريب من ساحة القديس فرحات، كانت تطبخ لهم الشيخ محشي والشيشبرك

والكبب ثم تعزف لهم على القانون وتقرأ من أشعارها ويقرأوون من أشعارهم، وكيف أنها بتقدمها في العمر كانت قد خضعت للعزلة والمزاج العصبي حتى باتت تحت تأثير نوبات السوداء تتمنى الموت في آخر حياتها كل ساعة، أستطرد حتى سها عنه فايق آغا تماماً، فأخذ ينظر حوله لينشغل بالزجاجات المرصوفة خلف البار قبل أن تقع عيناه خلال المرآة مقابله على امرأة فرنسية في العشرينات، ربما في عمر كاترينا تماماً، ترتدي فستاناً أزرق طويلاً مع قبعة ذات ريشة بيضاء طويلة وحولها ثلاثة رجال يرتدون بدلات جوخ سوداء نظيفة مع قمصان بيضاء وربطات عنق على شكل فراشات خمرية اللون، كان كلما شرب، كان يراهم أشد وسامة مما بدووا قبل ذلك ويراها تشبه كاترينته التي تستقبل عساكرها في اللحظات نفسها، كان غاضبا من نفسه، من كاترينا، وأكثر من ناظم أفندي لسبب يجهله، وربما حدث ذلك بعد الكأس الرابعة أو الخامسة حين دق كعب كأسه على خشب المائدة بقوة أحدثت فرقعة مما أجبرت ناظم أفندي على أن يسكت تماما، وجعلت الرجال الثلاثة والفرنسية يديرون رؤوسهم نحو طاولته معا قبل أن يعودوا إلى ما كانوا يتكلمون فيه، صب كأسا أخرى وتكلم لأول مرة منذ أن جلس.

VII

قال: هنا أرض الظلام، ولا أحد ينجو من الظلام، أحيا في الموسيقى والموسيقى لا تنقذ، دخل أول جندي وكان قوياً، ضم ثدي كاترينا إلى أضلاعه حتى أحست أنه سيخرج من ظهرها لكنه كان لذيذا ففتحت ساقيها أقصى ما تستطيع، قال: الأغاني ينبغي ألا تكون مراثي وليس لدينا سوى المراثي، الجندي التالي كان يريد حبا، أن يشم رائحة الإبط حتى ينتصب معه، وأن تقول له: أنت الذي أحببت، قال: في الحب وفي الحرب، يقف المغنون والشعراء بين النساء والأطفال، جندي آخر بكى ثم انتحى جانباً حتى قذف في يده وهي تكتم ضحكتها، قال: الظلم، الظلم، كلنا نظلم، أبي يظلم إذ يملك، أنا أظلم إذ أصمت، هناك جندي حمار لكن دون أير أسود طويل يتدلى بين رجليه ولا تنتصب أذناه حين ينهق كاشفاً عن قواطعه الأمامية، قال: لطالما كنا أمراء العماء، نكون مع العثمانيين ضد الصفويين، أو نكون مع الصفويين ضد العثمانيين، قسمنا النهر إلى لغتين، ونحن قسمنا النهر إلى ضفتين، الجندي الوسط يقتل لأن الذي على يمينه يقتل ويفر لأن الذي على شماله يفر وينيك لأنه وجد نفسه في رتل المجهول، قال: يؤلم الحب في الحرب والحرب تكثر الحب وتؤلف الأفئدة، لم يكن الجندي مجنوناً لكنه كان واضحاً، بدي أنيكك من ورا، ضحكت كاترينا وهي تحط يدها على كسها، ثم قالت: راح يبرد إذا ضليت عم بتحكي، الطيز للخرا وأضاف مازحة، إذا بدك تنيك طيز نيك طيز أمك يا عيني، قال: لست كردياً، لست من حلب، لست عربياً، لست مؤمناً، لست كافراً، لا علم، لا خيال، لا أكلم الطيور في المنام، لا شيء سوى الكوابيس، قال جندي: إيدي بتفهم علي أكتر

من لحمك بس بدي عينك، تناول شلحتها عن الكرسي بشماله وأخذ يعصر تينته عصراً لطيفاً وبيمينه مسد الشفة والفم الصغير والرأس والرقبة والعنق والجذع والخصر والظهر والرسغ والمعصم والكوع والبوع حتى نفر الماء الأبيض في الساتان ومن الساتان، قال: لست أحداً، لست نفسي، لست صديقاً، لست عدواً، أحيا لأفكر بالموت، لم أمت بعد لكن سأموت وأنا ألعن الحياة، قال جندي يتلعثم: بعرف في نسوان بتلحس بتمص، ردت: تلحس بخش أبوي ولك شخاخ، لا تمصلي ولا أمصلك، قال: أغني بالكردية، أقرأ بالعربية، وأشار بعنقه نحو بحسيتا، وننيك بين اليهود، كان الجنود ينتظمون في رتل آخر ليغادروا حاملين معهم قصصاً لألف ليلة وليلة في العراء، جئنا من حرب وجئتم من حرب أخرى، دخل رجل غريب زقاق بحسيتا متأخراً وكان في عينيه فولاذ شر لم يخفيه سوى ربع ليرة رنت بين كف الغريب وكف الحرس، آسفة اليوم خميس العساكر، تقول بياز خانم لكنها ترضى حين ترن في كفها ليرة، قالت كاترينا، خلصنا، قال الغريب: اشلحي كلبة فشلحت، وثم لن ينتهي القتل هنا، فيجيء الأرمن من البر ويجيء الشركس من الليل ويجيء اليونانيون من الليل والبحر والبر، ناكها ذو العين الفولاذ دون أن يخلع شيئا عنه، وثم أخرج سكيناً من تحت ثيابه، شطح كاترينا على بطنها، أغلق فمها بالشلحة، وغرز ركبته في الظهر ثم أمسك اليد اليسرى، يد الذهب، اليد الخضراء، وقطع الجلد واللحم والوريد وكسر العظم وأكمل على ما تبقى من اللحم والجلد ورماه جانباً، الأساور في جيب الغريب وهو يخرج من الزقاق ١٤٢، و كان فولاذ الشر ما يزال يلمع في عينيه ولا يخفيه شيء، اليد الخضراء في أرض، وكاترينا في أرض أخرى، كان شعرها الأشقر مردودا للخلف حتى بانت شامة الصدغ الأيمن، كان يحب أسمها، يلفظه مقطعاً مقطعاً، كات ري نا، وكانت تنزف، كات ري نا، كأنما كان يتكلم ليصل إليها، كاترينا كاترينا، وأز قربان كاترينا، ولم يعد يقوى على رفع رأسه عن الطاولة، وحين رفع رأسه لم يكن هناك سوى نادلين يتحركان بين الطاولات بقرف، لا ناظم أفندي بجانبه ليحمله ولا الفرنسية الزرقاء ذات قبعة الريش في المرآة بين ثلاثة رجال يرتدون بدلات سوداء جوخ نظيفة مع بابيونات خمرية تزين ياقات قمصان بيضاء في المرآة نفسها، فبكى حتى كانت دمعة طويلة حتى آخر جندي رآه في المنزول، طويلة حتى رأس دم كاترينا يمر من تحت باب العلية ويمشي على الدرج ويسقط على الدرج ويمشي وينزل ويسقط حتى يصل أرض الديار لتراه بياز خانم وهي تعد غلة اليوم وتقضم أصبع يالانجي، جر قدميه حتى المغسلة وتقيأ أخضر أحمر أبيض ثم رأى عدواً في المرآة وهبط اللولب أو تزحلق عليه أو زحف كقطة مشلولة، بالكاد كان يجر قدميه، بالكاد كان يفتح عينيه، لم يكن قد بقي أحد، ولا شيء يدل على بحسيتا، لا شيء يدل على طريق ألمه جي، لا شيء يدل على هدهد يلتقط الحصى لتلصقه امرأة بجدار قبر، ولا أثر لقبر نبي، فقط كانت هناك شجرتا نخيل تهتزان في هواء خفيف وبينهما دائرة بيضاء، وكانت العقارب السوداء تدور، في الهواء تدور، تدور لتجرد الثواني،

لتجرد الدقائق، لتجرد العماء الذي لا يجرد، لتجرد الساعات، الساعات، نظرات البشر المتروكة في الظلام، الظلام الذي لا يغادر هذه الأرض.

دُلدُل

١

قالت أمي أن جدي كان يعاني من الربو، وحين التقطوا الصورة التي علّقته في البيت، كان خالي الطيب الذي في الشام ينظرُ بطرف عينيه إلى جدّي وخالي الذي كان معنا حينها، الأزعر برأي أبي كان يحدّق في عين المصور، وجدي كما حكت أمي جاءته نوبةُ ربو بينما كان المصور يهمُّ بالضغط على زناد الكاميرا، لذلك كانت حياتنا تمضي، نكبر وجدي يحاول أن يتنفس، يفتح فمه نصف فتحة، يريد أوكسيجيناً، فيما كان خالاي بشعرهما الطويل مع زوالف السبعينات على طرفيه، الطيّب يلتفت نحوه بطرف عينه ليرى ما يحدث دون أن ينزل ذراعه المدودة على الكتف، والأزعر أيضا لا يحرّك ذراعه لكنه يبقى ينظر في عين الكاميرا ويحدّق في عين كل من سينظر إليه.

٢

وحين كان أبي يقول :أستطيع أن آكل مع الكريف والقرباط أيضا، كانت أمي تجّعد وجهها مشمئزةً وتأتي بحزمة حركات متلازمة نفهم منها أنها ستتقيأ إذا استمرَّ أبي في حديثه، وتخاطبه:

كريف نَهْ عشيرَتنْ، چهْ زبل جيه بونه،

(الكريف ليسوا عشيرة، لقد خُلِقُوا من الزّبل.)

لكنها كانت ترى أنهم طيبون ومسالمون وأفضل من القرباط الذين يسرقون ما تطاله أيديهم، ولذلك كانت تطرد القرباط لكنها تجزل في العطاء للكريف حين يأتون في موسم الزيتون، يطبّلون في الحقل ويزمّرون فتملأ أمي خُرجهم من الزيتون الأخضر ويمضون، وكان يبدون بؤساء ويشتكون من أنه لم يعد أحدٌ يدعوهم إلى الأعراس، مطلقين لعناتهم العشوائية على الشيطان الذي خرّب بيوتهم والذي لم يكن سوى الأورغ.

حنان كريف كان استثناءً، لم يكن يأتي في مواسم الزيتون بل ولم يكن يزورنا سوى مرة واحدة في العام وكان حين يأتي يكون برفقته رجال آخرون وابنتاه قمري ونازو، فيمكثون عندنا ثلاثة أيام خلالها يرافقهم أبي وخالي إلى صيد الدلدل ليلاً في وادي المغارات .وكنتُ بين

السادسة والسابعة حين اصطحبني خالي معهم في بيكاب المازدا البيضاء، وفي تلك الليلة بقيت قمري مع أمي في البيت لتلقّان اليبرق لوجبة اليوم التالي، أتذكر أن خالي أجلسني بجانبه بينه وبين نازو، ليعقّب وهو يقود على كل جملةٍ لنازو بمرح ويهتف :ياع، فيما أبي والرجال كانوا يجلسون على المقعدين المتقابلين في الجزء الخلفي من البيكاب، على مدى الطريق الذي كان يستغرق أقل من ساعة بقليل، كانت نازو تتكلم عن الدلدل، لحمه ألذّ من لحم الخروف، لحمه يشفي من الربو، يلّين المفاصل، يأكل النبات وليس الحشرات مثل القنافذ، ولا يتزاوج إلا في الربيع، قالت هذا وغمزته بعينها ثم ضحكتْ ونظرت عبر الليل،فشاركها خالي الضحكة دون أن يعقب بياعته الحمقاء، لكنه مدّ يده اليمنى من ورائي وقرصها في الخصر لتنطّ من مكانها مطلقة" :أي"، ووصلنا الوادي حوالي الحادية عشرة في الليل وبدأ الرجال على الفور ونصبوا أفخاخهم وربطوا طعوم الكستناء والبطاطا بخيوط وأوصلوها وجلسوا ينفخون الدخان من تحت شواربهم الصفراء، ليلتها غفوت في حضن خالي بينما كانوا يلقون نكاتهم ولم أستيقظ إلا وأنا على المقعد الأمامي من السيارة التي كانت تهتز بشكل خفيف بالكاد تُحس، كان القمر أبيض تماما وكانوا يبدون كالأشباح من بعيد، ثم انتبهت لمصدر الجلبة التي أيقظتني، استندت على البلور ووقفت على ركبتي ونظرت إلى الخلف لأرى مؤخرة عارية لأول مرة، ولم تكن سوى مؤخرة خالي نفسه، كان خالي ونازو يلتفان على بعضهما، وكان فمه في عنقها وكلما كان يحرك مؤخرته كان ثديها الأيسر يقفز من تحت أبطه الأيمن، كان النعاس ما يزال على عيني ولم أكن أرى بوضوح تام فضوء القمر بالكاد كان يضيء ظهر خالي وركبة نازو اليسرى نزولاً حتى بطّة الساق، ولكن كنت أسمع بوضوح أصواتهما، كان خالي يشهق ويزفر بقوة وهو يفحّ فوقها وكانت نازو تئن تحته وأستغربتُ حينها كيف أنها تتألم ولا تصرخ، كيف لا تستنجد ، كيف تتألم وتقدر أن تكتم بإرادتها كل ذاك الألم.

٣

كان خالي في بيتنا، في بيته، في محل الحلاقة، أينما حلّ يستطردُ وهو يتنقّل من رأس إلى رأس، المقص في يمينه والمشط في يساره، جق جق، جق جق، ويقول:

سليمان الحلبي الذي قتل كليبر هو سليمان محمد أمين من قرية كوكان، وقضى ٣١ يوماً يتعقب كليبر حتى طعنه بخنجر كان يخفيه في ثيابه ليقتل بعدها بأمر من محكمة عسكرية صلباً على الخازوق بعد أن أحرقت يده اليمنى، ومحو إيبو شاشو كان أول من أطلق رصاصة ضد الفرنسيين بعد أن إجتمع مع رجال آخرين في حارة آغيول، وقبلهما تزوج ممهد الدولة حاكم الدولة المروانية الكردية في ديار بكر من "ست الناس" حفيدة سيف الدولة الحمداني،

وابن حمدان في حلب تزوج من فاطمة بنت أحمد الهزارمردي الكردي، وسيف الدولة نفسه أوصى بدفنه في ميافارقين التي دفن فيها قبلها أخت الأمير وأمه، وحارة الأكراد تأسست في زمن الأيوبيين وكانت تقع خارج حلب، والشيخ عزالدين بن يوسف الكردي شغل منصب أمير لواء حلب في أوائل الدولة العثمانية، والأمير عزالدين هو من بنى الحوض الكبير داخل باب آغيول، وحين أستردّ منه الأمير جان بولات منصب أمير لواء أكراد حلب أنشأ داراً عظيمة داخل باب النصر هي ما تعرف اليوم ببيت جان بولات وهم أنفسهم من ذهبوا إلى لبنان وأصبحوا دروزاً، والقاضي أحمد أفندي بن طه زاده واقف المدرسة الأحمدية ولد في حلب وتولى فيها نقابة الأشراف، وثم بدأ ببناء مدرسته في محلة الجلوم، زقاق الجلبي، ووقف فيها ما جمعه من الكتب التي بلغت ثلاثة آلاف مجلد، منها عدة مجلدات بخطه.

رغم أن أبي كان يحبه، كان يلقبه ب "چنگه سز" أي الثرثار، وحين كان يتشاجر مع أمي كان يعيّرها فيه ويقول: أز ده ڤي تاماريه نم، أي أنيك هذا الجذر، كان أبي يرى أنه ستكون له رائحة البشر، فقط لو أنه يخرج أنفه من بين الأكساس، فهو لم يتزوج، ولم يشتري بيتاً، كان يعزف على الطنبور ويغني في الأعراس، يدخن باكيتين من الحمراء الطويلة، يطلق لحيته ويشذبها ليبدو أكثر شبها بشڤان پرور، وكان يمزح، ويتكلم بحميمية غامضة تستعصي على التفسير، وحين يخاطب أحداً، يبتدأ ب "ته ده منو" أو "من ده ته كرو"، لا فرق عنده، ولا من يخاطبه يزعل منه إن ناداه: نيكني أو أنيكك.

كان يفتح باباً ويعرف كيف ومتى يغلقه، إلا الباب الأخير، دخله ولم يخرج منه، لا هو فتحه، ولم يمهله الذين فتحوا له وقتا ليفكر كيف يغلقه.

في المرة الأولى التي كتبت فيها تقريراً عن جريمة، أذكر جيداً، كان حين كنت عنده في المحل بحارة جامع معروف، وما أن سمع الجيران يصرخون في الجوار، حتى ترك السشوار، أمرني أن أجهّز الكاميرا وأن ألحقه.

يومها كان الثلاثاء وكنا في حزيران وكانت حلب ما تزال هادئة في ٢٠١١، أقدمتْ أم في العشرين من العمر على قتل طفليها الرضيعين الذين يبلغان سنة ونصف، والصغيرَ خمسة أسابيع فقط، وذلك ذبحاً بالسكين، كان الزوج قد هرع إلى منزل أهلها ليخبرهم بعد أن عاد إلى البيت ورأى ما رأى، وكان الجيران متحلقين بحيادٍ مؤلم حول الأم التي كانت تجلس على كرسي بلاستيكي، وتحدّق في الفراغ في ظلمة باب المطبخ حيث الجثتان، وكان السكين لا يزال تحت قدمها اليمنى، لم تكن مكترثة لما حولها، أذكر نهارها أن خالي لم يرتبك مطلقاً، وكأنه كان يعرف ما ينبغي أن يفعله ريثما يأتي البوليس، جلب كأس ماء من البراد وأعطاها فشربت على الفور، ثم وضع يده على كتفها، وبكل الحميمية التي في صوته، قال لها:

ته برچيه؟ چه بوخيه؟

هل أنت جائعة؟ ماذا تريدين أن تأكلي؟

فأغمضت المخلوقة عينيها ولاحظت كيف اهتزت عضلات وجهها قليلا قبل أن ترد:

فلافل، صندويشة فلافل.

٤

مثلما كان خالي يأتي إلينا حين يعلم أن الكريف قادمون لأجل صيد الدلدل، كنا نزورهم أيضاً، وذات مرة، كان أبي بحاجة إلى سلالم جديدة لإستعمالها في قطاف الزيتون فاصطحبني معه إلى منزل جدي، تلك المرة، وصلت البستان برفقة خالتي الصغرى التي كانت تضحك دائماً، كان ضحكها يحلُّ محل كل ما يقال وكل ما سيقال، وكل ما يمكن أن يقال بشكل سيء أو جيد، كانت تضحك، وتتردد ضحكتها مع اقترابنا من بساتين الحور أسفل النبعة، ومع هبوب العصافير والتفافها بين أشجار الحور والبيوت وشجرة الدلب الكبيرة، حين وصلنا كان خالي متسلقاً شجرة حور، وحين رآني، لوّح لي باليمنى متشبثاً باليسرى وأخذ يتسلق حتى قبل رأس الشجرة بقليل، ثم أخذ يحرك جسده قليلاً قليلاً لتهتز الشجرة من أعلاها، ينحني بنصفه العلوي وهو شابكٌ قدميه كرباط، ويصفّر، فتهتزُّ الحور، وتميلُ، ثم يسقط رأسه للخلف وينحني بجذعه للخلف لتميل الشجرة معه من أعلاها، وظل يتأرجح شيئاً فشيئاً وحين أصبح يمسُّ شجرة الحور المجاورة، استدار للخلف، وبحركة واحدة، هوب، قفز إلى رأس الحور الأخرى التي أخذت تهتز من قفزته، وأمسك بها، وأخذ يضحك ويصرخ باتجاهي، وضحكت خالتي، وسبّته في أمه، في أمها، ولم يأبه بنا، بل ظل يميل مع الشجرة الأخرى، وكرّر الأمر نفسه، وتنقّل من شجرة إلى أخرى، كنت أراقبه بنفس مقطوع وأنا أشهق، وقفت وعيناي على شجرات الحور تميل على سماء زرقاء، لم انتبه لزرقتها إلا فيما بعد مثلما لم أبالي حينئذ بذبابة كانت تقف وتطير ثم تقف على جلد عنقي حيث تفاحة آدم تماماً، كان شعري ما يزال أملساً و طويلاً يمس رقبتي، كنت قد بلغت السادسة وسألتحق المدرسة في منتصف أيلول، أميل برأسي للخلف وأنظر للأعلى ولا أرى سواه، وبقيت كذلك وأنا أكبر مع خالي الذي كانت أخباره تأتي من مكان إلى آخر، بدءاً من اختفاءه في أثر نازو بين جنديرس وعفرين وحلب، في تتبع رائحة كسها كما كان يصر أبي أن يقول، ثم في امتطاءه الدراجة الهوائية بلفاحة حمراء على الرأس مع فلت عسكري وخفافة أديداس، يوزع المنشورات ويقود الاجتماعات، فإختفاءه في معسكرات البقاع وجبال قنديل وجبال آغري، فحياته هناك بين الحدود وخلف الحدود وحيث

لا حدود كما كان يقول، وثم تواتر الإشاعات والرسائل ولتنقطع أخباره تماماً قبل أن يظهر فجأة بعد أربعة عشر عاماً، ذات صباح،حين ولج صالون بيتنا في الشيخ طه ، كانت ما تزال قبل الظهر ونحن نائمون بعد، قال لأمي حالما دخل: كوجوك كانيه، أين الكلب؟ ليتجه حيث أشارت أمي نحو فراشي وأندس بجانبي وضمني لأستيقظ على رائحته التي لم أكن أخطأها.

لم تتغير رائحته، لكنه كان قد تغير، يعرج خفيفاً في قدمه اليسرى من أثر طلقة كانت ما تزال نائمة على مقربة من عظم الساق، يدخن كثيراً، يصر على أنه رأى، يفكر قبل أن يتكلم، وثم يتكلم متدفقاً ويدق بكفه الأيمن على الأرض كازاً على أسنانه ليؤكد بحرقة:

إذا كان ثمة كوردستان، فهنا.

وبقي مصراً على ما يقول، ومصراً على أنه قد رأى، وأظنه حين اختفى، لم يختفِ إلا لأنه كان قد رأى.

٥

في محل الحلاقة كانت القصص تتوالد مع حركات المقص، عن الثلج، عن الأصابع التي تُبتر حين تتجمد، عن الذئاب والضباع والأفاعي، عن الجوع، عن الرصاصات حين تمرّ جوار الأذن، عن السجون، عن العدو الذي تعرفه، والعدو الذي تجهله، عن الأخطاء، وعن سؤاله الذي ظل يهجس به: كيف نعيش؟ وحين كنا نبقى معاً، أو حين يسكر، كان يكرر قصصاً بعينها، يسكت فجأة ويقول: هل تصدق أن أحداً يمكن أن يموت من أجل كأس من السكر؟ ولا ينتظر الرد مني، نعم يحدث، كل شيء يحدث في هذه الحياة، ويسرد قصة الذي سرق كأس سكر، وأتهمه رفيق له، فمثل أمام محكمة ثورية خضعت لرأي الأكثر تطرفاً من أفراد المحكمة وقضت بأن يُعدم، فمن يسرق كأس سكر، يمكن أن يسرق أي شيء، وأن يفعل أي شيء، ثم يمجُّ نفساً طويلا، ويقول :عطيني الطنبور، أناوله وهو يذكر لي أن نوري ديرسمي، حين كان طالباً في جامعة إستانبول، كان يغني ويلجأ للطنبور لإقناع خصومه أو كسب مؤيدين آخرين له حينما لم تكن الأفكار والفلسفات تجدي، ويغني خالي، كريڤه، دوتمام، خانمه من، خزال خزال، جيا ميچ أو دومانه، كل تلك الأغاني التي كانت تُسجّل في برلين وتسكب في أشرطة لتُهرّب عبر الحدود وتصل إلى محلات التسجيلات لتُنسخ وُتباع سراً، ولتأتي معها صورٌ لشڤان وگلستان، كانت تُطبع على القماش وتكملها النساء بالخرز، بالأحمر والأسود والأبيض، تكتمل السترة السوداء المزررة، يكتمل الشال الأحمر حول العنق، يكتمل ذراع شڤان المدودة على كتف گلستان، ويكتمل الغضب في أعينهما، الغضب الذي لا بد أن يُصيبك

بالعدوى ما دمت كرديا، تغضب دون أن تفكر، وحين تفكر تستسلم للغضب، وحتى حين تحب لا بد أن تكون غاضباً ولا بدّ أن تحلم ليتعمّد جسدك بماء القداسة، وكان خالي رغم ولعه بشڤان وطبقات صوته، يكرر أحيانا أن صوتها أشد حلاوة من صوته، وثم حين ينال منه العرق، كان يضحك ويقول :هل تعرف لماذا؟ وأفكر، ربما، ربما، ربما، ....فيكمل وهو يضحك:

نا، نا، دور مره، شڤان ده كوني منه، دنگه منچي إيه خاش به.

لا، لا، لا تذهب بعيداً، لو ناكني شڤان لكان صوتي أيضاً جميلاً.

٦

كان البيت الذي دخلته من تلك البيوت الإسمنتية التي بلا طابو، غرفتان وصالون مع دكانتين على الشارع أحدها كان خالي قد أستأجره والأخرى كان قد حولها طبيب أسنان التقيته مرتين عند خالي وأسمه إن لم أكن خاطئاً كان محمد رشو إلى عيادة مرتجلة مقسمة من المنتصف بقاطع خشبي إلى قسم يضم كرسي المعالجة وقسم ينتظر فيه المرضى، ما إن اجتزت عتبة البيت حتى لفحتني رائحة التواليت التي خفت شيئاً فشيئاً كلما كنت أمشي في الممر حتى الصالون حيث كانت السيدة التي تكلمت معي بالهاتف لتخبرني بأمرٍ يخصّ خالي.

كانت في الأربعين لكنها تبدو أكبر بعقد أو بعقدين، لنحافتها البادية مع التجاعيد المبكرة على الوجه، لطريقتها في ارتداء الفستان التقليدي مع الإيشارب، وربما أكثر لأسلوبها في الكلام حيث كانت تسرد التفاصيل المملة دون رابط، كلَّ ما فكرت فيه، كل ما حدث لها هذا الصباح والبارحة واليوم الذي قبله والذي قبله، وأيضا ما حدث لأبنائها وزوجها وللفتاة التي وجدت معلقة بعمود الكهرباء ولجيرانها بعد قتال الأكراد مع عشائر البگارة، وكانت تقف أحياناً لتسأل: من سري ته إيشاند؟ (سببت لك الصداع)، فأرد بتلقائية، لا لا، فتتابع ولتأتي ظناً منها بزيادة التشويق، أو لضبط الإيقاع، بحركة تأتيها بعض النساء الأكراد، بعضهن، بترك فاصلة صوتية بين الجمل ليست أكثر من تصويت يشبه الصفير الخفيف على الحساء الساخن أو على الرشفات الأولى من الشاي، أو الصفير الذي يسببه الزكام الخفيف من الاحتقان بالأنف والمحاولة البائسة من المزكوم بفتحه بسحب الهواء،وظللت أحتمل كل ما يخطر على بالها، وكل هذا الهواء البارد الذي ينتج عن وضع أول اللسان على قبة الحنك مع فتح خفيف للفم وشهيق، لأفهم كيف أن خالي كان يجب ألا يتكلم، وكيف أنه في حوالي الساعة الثالثة عصراً

حضرت سيارة ڤيرنا فضية اللون ووقفت أمام المحل حيث قام أثنان منهم كانا كالعجول كما قالت السيدة بنزع خالي والمقص والمشط ما يزالان بيديه وكيف اقتاده الملثمان أمام مرأى الجالسين والعابرين والزبون الذي بقي بشعر نصف مقصوص إلى داخل السيارة وكيف اتصلوا بعد ساعتين بها ليخبروها أنه لا بد أن يربّى، وحسب السيدة فإن الذي كان يتحدث معها كان يتكلم بلهجة ساحلية ولكنها أكدت أنها سمعت أيضاً رنات موبايل بنغمة كردية، وحين سألتها: وماذا كانت النغمة بالضبط ؟

أجابت: الدف والزرنه أي الطبل والمزمار.

كان حظر التجول يُفرض من تلقاء ذاته، ولم أجرؤ أن أخرج، بقيت عندهم، جاءت العائلة وجلست حولنا، جاء الأولاد الصغار من الغرفتين، جاء توأئمهم الأكبر وكان ابنة نسخة طبق الأصل من السيدة وابناً ويا للشيطان سأفكر لاحقاً ولم انتبه لحظتها، كان نسخة طبق الأصل من خالي، وثم جاء الزوج ذو الشارب الأصفر ليمرح رغم كلّ شيء، وليبقى الصداع يشد على كامل رأسي وليصبح كما قال الزوج ذو الشارب الأصفر حين تكلم لأول مرة:

لقد حولتِ رأسه إلى طبل، لن تتركي عادتك نازو.

وما إن قال ذلك حتى دققت بائساً في الصوت الذي كان يمتد إلى ليل آخر ودققت بائساً في الوجه الذي كان بالكاد يُرى في الظلام الناتج من انقطاع الكهرباء، كان الضوء أقلّ من أن يفضح الوجه ويظهره تماما، وأكثرَ من أن يجعله تختفي التجاعيد منه ليعود كما كنت رأيته في ذلك الفجر الأزرق وكما حسبتني رأيته في الصباح الذي لم أصدق أن يمضي الليل لأقفز فيه في أول سيارة سرفيس ينزلق من جامع معروف نحو محطة بغداد حيث نزلت وتمشيت لأمتار ووجدت نفسي على باب الحديقة العامة.

٧

طلقتان ناريتان في الظهر، في الإلية، نزفٌ صاعق في الصدر، سمٌّ في الشاي، مبيد حشري في وعاء اللبن، مسدسات مزوّدة بكاتم صوت، سكاكين، شنتيانات، روائح نتنة ناتجة عن حموض مسكوبة على الوجه، رصاصات في صدر الفتاة مع علامات دهس لمرور سيارة

على البطن، وعلامات أخرى كنت أسجلها وأرفقها مع توقيت الجريمة، اسم الضحية، وتوصيف المكان، ويكتمل التقرير، وثم حين ظهرت الجثث الملفوفة بأكياس بلاستيكية مع أرجل مربوطة بحبل وأياد مقيدة مثلها إلى خلف الظهر، ومع سقوط القذائف والبراميل، لم أعد مهتما بالعلامات، لم أكن أتمكن سوى من توثيق الأسماء، تُسلّم الجثث للأهالي الذين يكونون سعداء لأنهم استلموا، وإن لم يأت أحد، تُدفن الجثة على عجل في حديقة، أو منصف أوتوستراد، أو مقبرة ، دون مراسيم، دون ماء وصابون وكفن، دون تلقين وملائكة، تعود إلى التراب وتبقى الأسماء لتدل على أحد ما، رزكار، جوليا، كريستينا، عارف، ناريمان، فارس، حكيمة، غيفارا، عكيد، أمينة، شيرين، جودي، تولاي، نزار، مصطفى، فالنتينا...، إن كانت محظوظة وتذكرها أحدٌ ما، تبقى الأسماء لتدل على أحد ما، أو تعود إلى ترابها الذي يخصها، إيقاعاً من مقطع أو مقطعين أو ثلاث مقاطع، لتدلّ على لا أحد، محض إيقاع بائس في موسيقى العدم.

وحدها مكناتُ القتل كانت تعمل جيداً بعد أن عُطِبَتْ حلب، كنتُ ما أزال في الشيخ طه، في منزلنا عند الجسر بمحاذاة سكة القطار فيما كان أخوتي وأخواتي قد التحقوا بأبي وأمي وانتقلوا إلى بيتنا في القرية على حدود تركيا، وكان أبي محاولاً أن يلّين رأس الحمار، رأسي، وأن يجرّني معه، كان يتكلم وكأنه يملك اليقين الذي يحميه، والحصن الحصين الذي يأويه :صار ما صار، لنا قرانا، ولنا زيتوننا.

وكنت ما أزال أعمل وبهمة أكبر مما قبل، وكان العمل قد أصبح أيسر لكنه اختلف فبعدما كنت أرتدي نظارتي النظيفة الأنترفلاي والجينز والكتّان المكوي والخفافة السبورت لأعاين هؤلاء البؤساء متأبطاً الكاميرا وآلة التسجيل أصبحت أذهب دون أن أتأنق لأنني كنت أعرف أنني أيضا وأي أحد آخر وفي أي لحظة، سيتمدد في وضعية من الوضعيات الخرقاء التي يتقنها الميتُ بينما أحدٌ ما يمدّ على وجهه شرشفاً أو يمرُّ دون أن يترك على وجهه سوى نظرة غير مكتملة، نظرة رثاء تبترها شفرةُ العطف الممسوحة بسمّ القرف.

في الصباح التالي لليوم الذي أختفى فيه خالي، لم أكن أريد أن أصدق ما يخطر لي، لم أكن أريد أن أرى بطنه وقد شطب بضربة سكين أو رأسه وقد تشوه بطلقة أو عضوه وقد بتر، بقيت أتمشى في الحديقة العامة، دخلت من الباب الذي مقابل مبنى مديرية الكهرباء، ولم أفكر بالحاجز كما كنت أفكر فيه، كانت أصوات القناصة والقذائف والطائرات تتناوب فيما بينها أو تتزامن مع بعضها فأخرجت سماعات الأذن، أوصلتها بالموبايل السامسونغ ودون تحديد، شغلت الأغاني تشغيلاً تلقائياً، وتمشيت ولم أتوقف عند تمثال أبو فراس الحمداني كما كنت

أفعل، صعدت الدرج، كانت السماء شاحبة تماماً فوق مشفى دار التوليد، أنحرفت نحو اليسار وأكملت طريق البيت حتى قطعت حلويات سلورة والمبنى القديم الذي على الشمال، المبنى الحجري المغلق قبل المثلث الذي يتفرع بعده عن الطريق المستقيم طريقان أحدهما يلتف دائريا حول الحديقة والآخر يميناً نحو العزيزية، وحين وصلت الجسر، توقفت وظللت أنظرت في ماء قويق العكر كما كان دائماً، حاولت أن أخدع نفسي وأفكر في المبنى القديم المائل للزهري الذي كان ربما قصرا عثمانيا أو منزلا يهوديا أو قنصلية في زمن ما، لكنني لم أقدر أن أكمل، لم أقدر سوى أن أسند ركبتي للحجر الأبيض على طرف الجسر ومرفقي على سوره، وبكيت، بصمت دون أن أخفض رأسي، دون أن أخفي وجهي، حتى لم أعد أرى الماء عكراً، حتى لم أعد أرى شارع الشلال بأكمله ولا جامع التوحيد ولا البنك الإسلامي ولا السماء التي ازدادت شحوباً فوق السليمانية والتلل والحميدية، بكيتُ يومها حتى لم أعد أرى شيئاً.

٨

عدتُ إلى البيت وتمددتُ كميّتٍ، لم أعد أريد أن أفعل شيئا، لن ألتحق بأبي، ولن أخرج في الصباح التالي إلى أي مكان، كان الظلام، ولم أستطع أن أحدد الوقت بالضبط، شّغلتُ مصباح شحن لِيد صغيرة، كنت سأنام لكنني التقطتُ صورة جدي عن الكوميدنة، كان ما يزال يفتح فمه مع صدر مرتفع قليلاً وشدٍّ لم ألحظه من قبل في جلد الجبهة مما بدت عيناه جاحظتين وكأنه سيختنق حقا، ورغم ذلك لم أبقَ طويلاً معه ولا مع خالي الطيب أذ استسلمت للأزعر الذي كان يحدق في عيني، كنت غفوت، غفوت بعدما تمددت كي لا يكتشف أني رأيتهما، كان خالي يدق على البلور لأستيقظ، قال :تعال لترى، يكفي، وشاداً أنفي بأصابعه، أكمل وهو يجرني، تستطيع أن تنام في يوم آخر، مشيتُ معه، كان الرجال متوزعين على الأفخاخ التي نصبوها بين المسافة الفاصلة بين المغارات والبساتين، كان دلدل قد علق تماماً في قفصه وأغلق الباب عليه، كان المسكين منكمشاً على نفسه باسطاً أشواكه فوق ظهره، ثم أخذ يتحرك، كان يحاول الخروج ويتحرك بعبث طلبا للنجاة، يندفع للأمام ويتراجع إلى الخلف بسرعة وحين أخذ يضرب الأشواك بعضها ببعض ويصدر أصوات حادة وشبحية كالأفاعي باصطكاك أسنانه الحادة القاطعة على بعضها، أبتسم خالي وهو يعصر كتفي محاولاً تهدئتي : لا تخف، لقد يئس، إنه يدرك أنها نهايته، من تلك الليلة ما أزال أحتفظ بثلاثة أشواك من الدلدل، نظيفة لامعة عارية مقلمة بالأبيض والبني الذين يتداخلان بحدود غير مؤذية، كانت قد بلغت الرابعة حين لمت نازو فناجين الشاي والإبريق، وحمل الرجال أقفاصهم في أكياس خيش، وبدأ البيكاب يتحرك، لم تتكلم نازو طوال الطريق لكنها كانت لا تكف عن الإلتفات بعينين

ملتمعتين رطبتين إلى خالي الذي بدا لي يومها راضياً وقوياً وجميلاً بشكل لا يحتمل، وددت طوال حياتي لو أمتلك جماله في ذلك الفجر الأزرق المسالم البراق، كان البيكاب يتهادى، عيناي في عينيه والفجر يهبط على غابات السنديان، على الطريق، على المنازل، على شجرة الدلب الضخمة، وعلى الحور من شجرة إلى أخرى حتى الحدود التي كانت قد تلاشت في الليل من تلقاء نفسها.

هَشّ

صادقتُ هيفيدار لسنتين لم تدعني سوى مرة واحدة أن أقبّلها، وصادف أنها كانت تعالج سناً متعفنة حينها فبقيت القبلة الوحيدة تلك ذكرى عفونة خفيفة للعابها الكثيف مع طعم القرنفل الحاد الذي ينبعث من ضماد الأوجينول الذي يحشره أطباء الأسنان في كل شيء.

ظهيرة ذلك اليوم كانت تنتظرني في حديقة كلية الآداب ، تأخرت عليها ربع ساعة و حين وصلت إلى ساحة الطب و دخلت الممر الذي تحيط به أشجار الكينا رأيتها تقرأ في جريدة و مقابلها على بعد متر كان رجل نحيف يرتدي قميصاً أسود وبنطال جينز أزرق، ما إن إقتربت منهما حتى تركها ومشى ولم ألمح من ملامحه سوى وجهه المغبر مع ذقن خفيفة غير مشذبة لذا حالما وصلتُ سألتها:

مين هادا الجردون؟

دون أن ترفع هيفيدار رأسها أجابت بغيظ:

جردون، دخيل الله مين بدو يكون.

بعدها بساعة كنا نتمشى أمام كلية العلوم حين أشارت هيفيدار إلى الخلف:

أنظر.

كان الجردون يجري مكالمة هاتفية من الكولبة العامة، ثم ترك السماعة وأخذ يتبعنا، أردت أن أقف لأكلمه لكنها أصرت أن نمشي لأنه قذارة وحسب، ألتففنا حول كلية الزراعة فالمعهد التجاري ثم مبنى التمريض فقسم الإسعاف في المشفى الجامعي وظل يتبعنا.

إستقلنا أول حافلة سرفيس نحو مركز المدينة وظننا أننا تخلصنا منه، لكن عند نزلة الهندسة إنتبهت إلى أنه يستقل سيارة سوزوكي ويتبعنا، فخرجنا لنستغل الموقف المزدحم في الميريديان ونضيعه، لكن على بعد خمسين متراً كان ينتظرنا أمام محل للأزهار، فأخذنا نركض وهو خلفنا، ثم دخلنا مبنى ضخماً، عبّارة كبيرة بأربعة مداخل كنت أشتري منه المواد الطبية من مستودع في الطابق الرابع، على الدرج كان قد أخرج مسدساً ويركض خلفنا،

إستغلت وجود طلاب طب هناك، فدخلنا في دهليز فرعي فإلى مدخل آخر وبسرعة نزلنا الدرج، وفي الشارع كنا نركض رغم أن لا أحد وراءنا، ولم توقفنا سوى يد عند المكتبة،

أمسكني من ذراعي وقال: بحق الجحيم، ماذا تفعلان؟

لقد كان باولو.

باولو كان برازيلياً، أتى إلى حلب متتبعاً تاريخ الطرق الصوفية وكان قد حصل على منحة مدتها سنتان دراسيتان من جامعة أمريكية ليحضّر فيهما أطروحة الدكتوراة، ألتقيت به في رحلة إسستكشاف في جبال الأكراد شمال حلب،

ال"هَشْ" كما كنا نسمي تلك الرحلات ولا أدري من أين أتت التسمية، كانت فكرته، ننقسم إلى فريقين، نتجول بين الجروف والصخور والأشجار، نصرخ واع واع واع، ننادي بأعلى ما نستطيع، نتتبع مسارات موسومة بإشارات من القماش الأصفر و الأحمر والأخضر لنصل إلى كنز إفتراضي يكون منظمو الرحلة قد خبأوه مسبقاً في جذع شجرة مثلاً أو خلف صخرة.

ذلك اليوم الذي ظهرت فيه يده كيدٍ إلهية آوتنا من الفزع الذي ألحقه بنا الجردون، كان باولو في عفرين وحضر اليوم الذي سبقه جلسة من جلسات الذكر التي يقيمها أتباع الشيخ عبد القادر الجيلاني، قال باولو بأن الجلسة بدأت بقرع بطيء على الدفوف والطبول وبدأ الشيخ الواقف وسط حلقة الدراويش بترديد " الله حي" ، كان الشيخ يتمايل بنعومة ويغمض عينيه ويرفع يديه بالدعاء، والدراويش يتمايلون إلى الخلف والأمام وينسدل شعورهم على وجوههم، ثم بدأ قرع الدفوف والطبول يزداد أسرع أسرع وتراتيل الدعاء تعلو أعلى أعلى حتى دخل الدراويش في مرحلة النشوة، مرحلة الفناء.

حينها قام الشيخ بضرب الشيش في بطن مريد له من الجانب إلى الجانب الآخر ثم أخرجه دون ألم من المريد ودون نزف، وكل ما فعله الشيخ أن مسح ببصاقه مكان الغرز.

أحببت أن أقول شيئاً لكن باولو كان منهكاً كمن تلقى صدمة قال بأنه قاوم كثيراً كيلا يغلق عينيه حين غرز الشيخ طرف الشيش في بطن المريد ثم أضاف:

إنه شيء فظيع لكنه يحدث.

كانت هيفي كما كنت أناديها قد نامت على كنبة في الصالة، أنا وباولو أحضرنا مازات ومشروب ويسكي وكانت لينا قد عادت من السوق ومعها أكياس الخضروات والفواكه.

بمجيء لينا أصبحنا في مزاج الحب، قالت هيفي أنها ستبيت الليلة معنا، ربما تنسى أمر الجردون، أما أنا فكنت معتاداً على مصاحبة باولو ولينا.

لينا كانت في الخامسة والثلاثين، تتقن العربية مثل باولو، وتحب أن تجرب كل شيء، أقامت لسنتين في بيروت ثم أتت مع وفد بلدها الدانيمارك لتشارك في مهرجان فنانات من العالم في بيت الشيباني الأثري، وبقيت في حلب.

كان باولو يحاول أن يفسّر، قال بأنه يحدث تصعيد وجداني في مجالس الذكر إلى أن يصل الشخص إلى مرحلة تنشيط الجهاز العصبي اللاإرادي، ويخرج من عالم الحس والتأثر إلى عالم التجرد من الإحساس، ولو تفحصنا حالة الإفرازات المعدية عند المريد لوجدنا أنها قد بلغت ذروتها، وهذه الإفرازات تقف حائلاً بين الإحساس بالألم بعد أن تكون قد عطّلت عمل الناقل للإحساس في العصب العاشر المتصل بالمعدة.

أرادت لينا أن تغيّر مجرى الحديث فأتت من المطبخ وهي تكرع زجاجة البيرة وتردد بشكل مسرحي: نكون أو لا نكون، تلك هي المسألة.

كان هاملت بطلي المفضل وكنت قد كتبت تحليلين عنه في مجلة طلابية يسارية كنت أعمل محرراً فيها، كانت لينا تعرف ذلك، قلت للينا: هل شكّ هاملت في عمّه قبل مقتل الأب، قالت لينا بأن الأم تبقى صالحة وطيبة ما دامت تعد لنا الفطور وتدفئ لنا الجوارب، وكل منا يرى أمه قحبة حين يتخيلها في فراش الأب، فكيف سيراها حين يجدها في فراش أحدٍ آخر، قلت مخاطباً لينا، في المشهد الذي يقتل فيه هاملت بولونيوس، لماذا تبدّا شبح الأب لهاملت ولم تراه الملكة بخلاف ما حدث في شرفة القلعة حين رآه هاملت وكل من كان هناك، هوراشيو ومرسيلوس وبرناردو، ثم تبادلنا حواراً كنا نفضله بين هاملت والملكة:

يا ويحكِ إنك تسألين بلسانٍ خبيث،

دع العبثَ إنكَ تجيبني بلسانٍ طائش،

ثم أخذت أساعدها في تحضير وجبة العشاء، وبعد العشاء قالت بحماس بأننا سنشاهد فيلماً عظيماً ثم شغلت لنا جهاز C.D وأخذنا نتفرج على فيلم (كويلز) الذي مثل فيه جيفري رش دور ماركيز دو ساد، في منتصف الفيلم وبينما كانت لينا تجلس بجانب باولو وتحضن ظهره واضعة يديها على ركبتيه، أتت هيفي وجلست على طرف الكنبة حيث كنت أجلس، لففتها

بذراعي وحينئذ نظرت في عيني، قبلتني وتركت في فمي رائحة العفونة الخفيفة مع طعم الأوجينول.

وفي ختام المشهد الذي يُمنع فيه ماركيز من وصول الحبر والأرياش إليه ويبدأ بالكتابة على الشراشف والملاءات بإصبعه المغموسة في الخراء كي يكمل روايته ويهرّبها عن طريق الخادمة إلى المطبعة خارج السجن، قالت لينا موجهة كلامها إلي:

أنظر محمد، يجب ألا نتخلى عما نمتلكه بسهولة.

لكن ما جعلنا نتذكر لينا إلى الأبد فكان بعد إنتهاء الفيلم حيث قالت: سنلعب لعبة أرجو أن نشترك فيها جميعاً.

أجلستنا على الأرض أحضرت زجاجة البيرة بعد أن أنهت ما فيها وجلست لنلعب بأن يدير كل منا الزجاجة وحين تتوقف يبدأ من تتجه إليه فوهة الزجاجة بخلع قطعة من الثياب، قالت أنهم كانوا يلعبونها في دار الطلبة، وربما إستمدتها من فيلم بورنو، حاولت أن أبرر لها بأنني لن أتحكم بنفسي لكنها وضعت سبابتها على فمي وقالت: ششش، هذه لعبة.

أخذت الزجاجة تدور، ونحن نضحك، بدأ باولو بالخلع، ثم هيفي التي حين بقيت بالسوتيان والكيلوت قالت :آسفة، لن أستطيع أن أكمل، فقالت لينا: حسناً، أنا سأخلع نيابةً عنكِ أيضاً، أنتِ فقط أديري الزجاجة.

بعد ما يقارب ساعة كنا عراة، وسكارى كلٌ بطريقته، هيفي على الكنبة وقد عادت وأرتدت كامل ثيابها تشاهد التلفاز، باولو كان هادئاً وديعاً وكأنه بكامل ثيابه، فيما كنت أداري إنتصاب حيواني بلفّ ساقٍ على ساق، أشارت لينا إلى باولو أن يقوم ويرتدي ثيابه ويهتم بالمسكينة، ثم أمسكت بحيواني وقالت وهي تضحك وتجرني إلى الغرفة الداخلية: أيها الثرثار، سأعلمك كيف خانت الملكة الأب مع شقيقه وتركت الجرو هاملت يعوي على أبراج القلعة مع أسئلته الغبية.

ثم بفمها أغلقت فمي، وبكاحلها أغلقت الباب.

منذ يومين، بعد أكثر من إثنتي عشر سنة إلتقيت بهيفيدار مصادفة في أول يوم لي بإستانبول، كانت ترتدي فيزوناً أسود شمّرت عن إحدى ساقيها إلى فوق الركبة، تنتقي الخضروات من

محل كبير في جادة أحمد عارف بمحلة آسان يورت قالت مشيرة إلى ساقها: ولا يهمك، جرح شظية طائشة في الأشرفية، قديم من سنتين بس إلتهب مكانو من إسبوع.

دلتني على بيتها في الطابق الأرضي قرب مدرسة ما، كانت تعمل عاملة أمبلاج في ورشة خياطة، تدخن بشراهة، قالت بأنها تنتظر دعوة لمّ الشمل من أخيها بألمانيا وريثما يتم ذلك تحضر مرة كل شهر محفلاً ماسونياً مع نخبة من المسيحيين واليهود والروم ثم أحضرت شنطة كبيرة مليئة بمنشورات حزبية كثيرة كلها تريد تغيير هذا العالم اللعين.

صباح هذا اليوم أستقلنا الميترو نحو ساحة أكسراي لتدلني على مهربين وأتفق مع أحدهم لتأمين طريق لي إلى اليونان أو الدانمارك مباشرة.

في محطة الميترو أرتني على موبايلها مقطع فيديو يظهر كيف يجزون رأس أحدهم ويهللون الله أكبر، لم أستطع إكمال المشهد، قالت: أيعقل هذا؟ أجبتها بما كان يقول باولو:

إنه شيءٌ فظيع لكنه يحدث.

قبل أن نستقل الترومواي أخذنا نتمشى في شوارع فاتح المحيطة بكنيسة آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد التي تعيدها إلى حارات حلب القديمة.

كانت تمطر منذ ثلاثة أيام، هيفي تستند علي ربما لتخفف الضغط عن ساقها وكان الترومواي يمضي بنا في ليل إستانبول، ونحن نلتفت بين حين وآخر للخلف دون أن نلحظ شبح أحد ما يتبعنا.

الفرخ

على سفح التلة التي تشكل أول ضاحية الشيخ مقصود، والتي تشرف على مقابر الأرمن والجنود الفرنسيين الذين قتلوا في فترة ما بين الحربين العالميتين، لم نكن ننتظر أحداً ما ليأتي ويقول: حسناً، كل شيء على ما يرام، أو ستكونون بخير ولا تأبهوا لشيء، كنا نغني عن قمر أصفر في السماء، عن ضوء يشع بين المنازل، ثم نقلد جميل هورو، نغمض أعيننا ونضع اليد على الأذن وننادي على السمراء: تعالي كثيراً وإذهبي قليلاً، ثم رفعنا في أربعينية الشتاء تلك ثلاثة علب فوكس إلى الأعلى، نظرنا بعيداً حتى القلعة كذئاب بشرية سعيدة، وبإيمان الشباب الذي لا يعني شيئاً سوى السذاجة، أقسمنا (ويا للهول) على أن نبقى أصدقاء ومدى الحياة .

كنا ثلاثة.

أنا من سأصبح رجل الحيط، رجل الكنبة، الشارد الأبدي المراقب الذي يمشي على الحواف، أغزل خيط العزلة، أجدله، أشمّعه ثم أهتدي به لإختراع حياة لا يربطها بالحياة سوى الخيط نفسه.

آزاد الذي كتب على جدار داخلي في ثانوية وجيه عبد الدايم " تحيا كردستان " ففصل على إثرها بعد أن عوقب بفلقة شديدة على الأرجل أمام المدير والمدرسين وعشرين شعبة دراسية.

ومحمد عمر.

آزاد كان يغني ويمثل ويكتب ويجادل في السياسة وكل شيء، يتنقل بين التنظيمات الكردية ولا يبقى طويلاً مع أي طرف، كان يضيع لكنه يهتدي بمقولة ربما لغوته أو غيره، أقتبسها ماركس في أحد كتبه، وجعلها آزاد منارته: المذاهب رمادية، شجرة الحياة وحدها خضراء.

مرة، زرته في البيت، كان عارياً تماماً، قال: هيا، لا أحد في البيت، كلهم خرجوا، قلت: يعني؟ قال: نيكني، فضحكت وقمت أشغل التلفاز، قال: لا تفهمني غلط، بس أحب أجرب أنو واحد ينيكني، وقام إلى غرفة النوم وعاد مرتدياً ثيابه وعدنا الطلبة الأنيقين في بناطيل الجينز

والقمصان البيضاء، ثم لأخفف من شعوره بالخطيئة، رويت له قصة المشط الذي أشتراه لي والدي حينما كنت في السادسة وكنت أتباهى به، ولم أتخلى عنه سوى لقُلْقَكري مقابل أن أحتك به من الخلف، وقلفكري حينها كان كل أطفال الشلة يدعون أنهم ناكوه خلف المدرسة وأذكر أن كبير الشلة سألني: هل كيّفت؟ كنت سأرد: لم أحس بأي شيء، لكنني قلت: بعد بكرا راح أجيب قلم الإستيلو كمان.

في الأسبوع الثالث من آذار 1990 قبل عيد النيروز بأيام، أصطحبنا آزاد، مفتاحنا لكل شيء، إلى إجتماع سري عقد في منزل قيد الإنشاء على أطراف حقل الرمي في آخر الضاحية، ويا للغرابة لأمرين أنه كان سرياً وعن الأدب وثم لأنه بقي الإجتماع الوحيد الذي حضرته ولا أدري لماذا بقي مرتبطاً عندي برائحة الجوارب، ربما لوجود أكثر من مئة زوج من الجوارب الرجالية وربما لأنني أنزعجت حينها كثيراً، كان المحاضر يتكلم عن الفروقات بين شعر أحمد خاني وشعر ملا جزيري وكان يروح ويجيء ويصف الخاني بأنه بارد، والجزيري بأنه حار، الخاني بارد لأنه يأتي من العقل، الجزيري حار، يربت على الجزء الأيسر من صدره ويقول: لأنه ينبع من القلب، الخاني عقل والعقل بارد، الجزيري قلب والقلب حار، وحين فتح النقاش قلت دون أن أقصد الإستهزاء: العمى، حسيت حالي في حصة الفيزياء، لكن خانني صوتي في الصف الخلفي حيث كنا نجلس على الأرض، وخرج رفيعاً كصفارة حين قلت: أنا أرى .... فضحك بعض الحضور بضحك مكتوم فيما عقب المحاضر بكل ما يمكن أن يملكه الكردي من الوقاحة والغلاظة:

جيلك (أيها الفرخ)، حتى أنت ترى أيضاً؟

وحتى الصيف الثاني الذي قضيناه معاً بينما كان الشعر يظهر تحت أنفيهما وعلى الذقن فيما بقيت أقصر منهما وأنحف، فرخاً كما أنا، وذات يوم قال آزاد بأنه سيرى إن كنا رجلين أم لا، أستأجرنا سيارة تكسي نحو كرم القاطرجي وفي مدخل البناية أخرج آزاد بخاخاً طبياً برائحة النعناع وبخ في فمه وفمينا، وقال: البنت لازم تشم من تمكون ريحة طيبة مو ريحة خرا .

تعشينا وأكلنا الفواكه وشربنا البيرة ودفع كل منا خمسمائة ليرة كنا قبضناها من عملنا ثلاثة أسابيع في تزيين مركبات مهرجان القطن، كنا ندخن وكان كل شيء يجري كما نريد لولا وجود طفل في التاسعة، أخ للقحبة نفسها ويحمل ملامحها، لم يتكلم مطلقاً، كان شاحباً وذا عينين صغيرتين تحدقان فينا بغضب شرس، أبى أن يخرج من البيت رغم أنها ناولته خمسين

ليرة، وبقي يساوم ببقاءه بيننا ونحن نزيد له الليرات، لم ينطق شيئاً ولم يقم من مكانه حتى أخذ منا ما يقارب الثلاثمئة ليرة، فقام آزاد ليعلق ما أن خرجنا: ابن الحرام بيطالع أكتر منها .

في السابعة عشرة التحق آزاد بإحدى التنظيمات التي تقاتل في الجبال، محمد عمر أدعى أنه سيفتح ورشة لصناعة المنظفات مع ابن عمه في بيروت لأبقى وحيداً في المدرسة ووحيداً أعارك شبح البكالوريا.

محمد عمر لم أعد أتذكر منه سوى الشعر الأشقر والنظرات القلقة في الوجه الأبيض الذي لا تعيبه سوى ندبة الليشمانيا على ذروة الأنف، كان يتردد على الجوامع وجمعة تلو جمعة أخذ يبتعد عنا ثم ترك المدرسة وآخر مرة رأيته فيها كان يوم الجمعة التي دعاني فيه لرؤية براميل اللودالين التي يصنعها ويبيعها في سوقي الشيخ مقصود والأشرفية، رفع الغطاء عن أحد البراميل، وقال: شم، فشممت رائحة النشادر القوية التي غطت مناخيري فأغمي علي فوراً، ثم فتحت عيني ورأسي على ركبته لأرى وجهه وندبة الليشمانيا على رأس الأنف وهو يقول: هيك بتفيق وما بتنساني طول عمرك.

وبعدها لم نكن نسمع سوى أنه في لبنان، في أفغانستان، في العراق، ومرة أنه واحد من ثلاثة أكراد معتقلين في غوانتانامو.

في 8 أيار 2014 وصلت مطار أتاتورك في العاشرة والنصف صباحاً في رحلة عمل لثلاثة أيام لحضور مؤتمر عن التقنيات الحديثة لتطبيق حشوات الكمبوزيت الضوئي في الأسنان الخلفية، وفي فندق الباشا حيث نزلت، شاءت الصدفة أن أعرف في الليلة الثانية بطريقة (أها، أنت كردي، من وين، بتعرفو لهداك، عن جد) وعن طريق عامل البار أن آزاد في إستانبول أيضاً، وأنه يعمل في بار على الضفة الشرقية من البوسفور، وأنه كان معتقلاً لدى جماعة إسلامية متشددة في هذه الحرب – المتاهة، و(هات وخود) حصلّت رقم موبايله.

صباح اليوم الثالث والأخير إستيقظت في التاسعة، وخلال ساعتين تبضعت من محل إل سي واكيكي في مول هيستوريا المجاور، ألبسة للسيدة، لصغيرتي، لصغيري، كتباً وأقراص موسيقى من مكتبة في جادة الإستقلال، ثلاثة بناطيل لي من بسطة تحت الجسر عند ساعة أكسراي، ثم أوصلت أغراضي إلى غرفتي بالفندق، رتبتها برفق بجانب اللابتوب ووثيقة حضور المؤتمر وقلت لنفسي: حسناً، لدي متسع كاف من الوقت، أيها الصديق القديم، لدي

ساعات كثيرة حتى موعد الطائرة في الحادية عشرة مساءً ولِق: بعصتُ شاشة الموبايل وإتصلت به.

ألتقيت به في محطة كادي كوي، إحتضنني وقال: الفرخ لا يكبر.

أظنه كان محقاً إذ أنه كان كهلاً، بينما أنا ما أزال أبدو كأنني في الخامسة والعشرين أو الثلاثين، ماكسيموم، وأظن أنني الآن في الأربعين أصبحت أتباهى بأني أبدو صغيراً.

تمشينا لساعتين على الكورنيش الذي يرتاده أزواج العشاق، تحاذيه حدائق بسيطة وتفصله عن البحر صخور موضوعة بأناقة، كحلية كانت تبدو تحت البلل، أمطرت خفيفاً، ثم توقفت ثم غامت مرة أخرى، ورغم كل شيء كان المكان ساحراً، وفكرت بينما كان آزاد يحكي عن عودته إلى حلب قبل عشر سنوات وتركه السياسة، فكرت: هل سيبدو هذا المكان نفسه ساحراً، هكذا، فيما لو ألغيت الرحلة، وعدت إليه غداً.

جلسنا على الرصيف أمام دار الأوبرا وأنصتنا إلى فرقة جوالة من الطلبة كانت تعزف من أغاني قرا دينيز أي منطقة البحر الأسود، ثم تمشينا ودخلنا البار نفسه الذي يعمل فيه آزاد، قال بأنه سيعطل اليوم على شرف الفرخ، ثم أوصى على البيرة، وفطائر الجبنة المسقسقة، شربت من بيرة أفيس الشهيرة أما هو فمن البيرة الفلت، بيرة البراميل، ثم حكى لي عن اليوم الأول من إعتقاله، كان عائداً من عفرين، أوقفوا باصهم على الحاجز، أطلقوا سراح النساء والأطفال ثم عصبوا أعينهم وقيدوا أيديهم خلف الظهر وقادوهم في بيكابات.

قال بأنهم نقلوا من مكان إلى آخر وكان عددهم ينقص بين مكان وآخر حتى وصلوا إلى سجن قديم لم يعرف عنه شيئاً لكنه عرف من سجناء آخرين قدماء أنه في ريف إدلب، ثم أضاف: كان جحيماً. وصمت بعدها ولم يفعل شيئاً بعدها سوى كرع البيرة التي يسكبها هو نفسه للزبائن كل ليلة.

خرجنا من البار في التاسعة مساءً وكنت ما أزال أنظر إلى ساعة الموبايل وأرى أنه لدي ما يكفي من الوقت، كان رأسي خفيفاً، والعالم جميلاً، وكل البشر نظيفون ورائعون، أصر آزاد أن يرافقني حتى المحطة ثم أصر أن يرافقني في اليخت حتى الضفة الغربية من البوسفور لأجلب أغراضي من الفندق وأطير .

في اليخت عاد آزاد إلى الجحيم في آخر أيامه.

قال أنهم قادوهم في اليوم الثالث عشر إلى "السيران" وأضاف: كان مسلخاً بشرياً في حاكورة من أشجار الزيتون، كانت الأجساد معلقة بحبل، أو مصلوبة، بدون أذرع، مقطوعة الرأس، ورؤوس أخرى مفقوءة الأعين متروكة تحت جذوع الأشجار، وحين أعادونا إلى السجن كان هناك قاضٍ يدعونه أبو سلمان ذو شعر طويل أبيض تتخلله خصلات شقراء، والحراس الذين أعتدنا عليهم، والأمير وبرفقته فتى بالكاد تجاوز الثانية عشرة يخاطبه الأمير بولدي أسامة.

وأكمل وهو يتنفس بسرعة، كان القاضي يتلو أحكامه بعربية مهجنة جعلتني أخمن أنه من الشيشان، أحكامه كانت ستنفذ في اليوم التالي وتراوحت بين الجلد وطلب الفدية وقطع اليد من الرسغ و النحر، وفي اللحظة التي نطق فيه إسمي، قال آزاد، إقترب أسامة مني، كنت على الأرض، مقيداً، رأسي بين ركبتي لا يصلني سوى صوت القاضي ورائحة خرائي، مرر أصابعه الرقيقة الناعمة على رقبتي، أخذ يتحسس فقراته بدقة، فقرة فقرة، أمسك الجلد بين الإبهام و السبابة، وأخذ يشد الجلد مرة تلو أخرى ضاغطاً على العروق، ثم شد شعري ورفع رأسي وأخذ يتحسس تفاحة آدم في عنقي، واضعاً إصبعه الوسطى في وسطها تماماً ثم قال مخاطباً الأمير: هل آن أواني؟ فضحك الأمير ضحكة نبرتها بين الأبوة و النبوة وقال بلكنة مسرحية: لقد أشتدت ذراعك يا بني لكن أترك المجوسي، رقبته غليظة، ستعذبك. ثم أردف مشيراً بعينه إلى الطرف الآخر، إلى آرام: الأرمني رقبته ملساء، أنصحك به أيها الشبل.

ليلتها حدثت المعجزة، أكمل آزاد، إقترب مني القاضي الذي أنتبهت أنه كان يحمل ندبة ليشمانيا على أنفه وهمس سراً، لقد شفعت لك عند الأمير، ثم بسرعة عصبوا عيني ووضعوني في سيارة بيكاب، وحين أصبحنا على مقربة من حاجزٍ عسكري لميلشيات الأكراد، عروني تماماً، وأطلقوني وأطلقوا خلفي في سماء البرية مشطين من الرصاص لأعدو بقدمين عمياوتين وجسد لا يمكن لأحد أن يقدّر خفته .

كنا سكرانين تماماً، قمر إستانبول يلحق بنا، واليخت يمضي بهدوء، قال آزاد بعد صمت طويل مشيراً بإبهامه إلى الخلف: هل تعرف أن جميل هورو غنى هناك في كادي كوي، عزف له علي تجو وكانت عائشة شان معهما ثم أخذ آزاد يغني بصوته العجوز، أيتها السمراء، تعالي، تعالي أيتها السمراء، القمر الأصفر في السماء، الضوء يشع بين المنازل، فتعالي، أرغب في قبلة الجميلة لكنني أخشى من أهلها، لم أعد أطيق أن أنتظرك، تعالي كثيراً وإذهبي قليلاً، تعالي أيتها السمراء، أيتها السمراء تعالي.

وكما يحصل لي حينما أسكر تماماً، غفوت بل نمت، ثم أستيقظت، لم يكن آزاد معي، ولم يبق أحد من الركاب ولم أكن قادراً على فتح عيني أو قادراً على دق رقم الموبايل الذي أنتبهت أنه قد نفدت بطاريته بل ولم أستيقظ إلا وموظفة بتنورةٍ قصيرة تنادي: آبيه، آبيه، ولم أفهم من جملها التركية الأخرى سوى أننا وصلنا.

عَكَهَ

كان يصفني بأني بسيط كالماء، واضح كطلقة مسدس، لكني لم أكن أحسب ما يقوله إطراء بل وجهاً آخر لما كان يقوله أبي:

حكيك متل ضرطات الخيول.

ففيما كنت مزاجياً حاداً عنيفاً أقول مثلاً، "الكتابة السورية جميعها تنوس بين الإنشاء والباروك" أو "لا رواية سورية تُقرأ دون الحاجة إلى علب بيبسي كولا لهضمها" أو "الموسيقى هي الجاز فقط"، كان هو محدثاً بارعاً ومسلياً يتنقل بين قصص سعيد حورانية وقصائد رياض الصالح الحسين وأفلام محمد ملص وموسيقى أديب الدايخ وجميل هورو وصبري مدلل وصباح فخري، كنت أراه عبقرياً حياً يمشي على قدمين، بهالةٍ غير مرئية حوله.

في حي الفرنسيسكان، ذات مرة، توقف لبرهة أمام المبنى ذي القرميد الأحمر، أشار بيده إلى الصليب على السطح وأنشد بجلال:

أنظروا إليه

لقد تفسخ جسده

وما يزال يحمل راية الحرية.

وبينما كان أبوه يرى فيه عاقاً فاشلاً ثرثاراً نال شهادة البكالوريا بعد أربع دورات، ويجره بالقوة إلى ورشة الألمنيوم، كنا نراه فيلسوفاً.

كنا نعقد جلسات الشلة في مكانين من منزله بالسريان الجديدة أنتزعهما بالقوة أو الاتفاق مع العائلة إما في البلكون صيفاً حيث نطل على أشجار الصنوبر والسيارات التي تعبر خط الدائري الشمالي، أو في المطبخ.

تستفرد العائلة بالمنزل، أمام التلفاز في الصالة، أو في غرف النوم: الأب و الأم، الشقيقان والشقيقة التي تبدو قبيحة رغم أنها تشبهه تماماً تحمل ملامحه الجميلة نفسها، وهذا يحصل كثيرا بين الأخوة، لم نراها سوى مرات قليلة، كانت ترتدي نظارات طبية، صامتة بلهاء لا تنطق سوى كلمة واحدة حين تُستفز: عكه أي (خراء) ولا تنطقها دراكاً بل رشاً: عكه عكه عكه.

كانوا يستفردون بالمنزل ونبقى نحن ضيوفه نحشر أجسادنا في الكراسي، ونحشر الكرسي في أحد المكانين حول طاولة مشروب صغيرة ونتكلم.

كان يحب روشين اليزيدية حباً يراه هو رهانه على الحياة، نراه نحن أصدقاؤه يائساً فاليزيدية يمتنعون عن تزويج بناتهم لأي دين آخر، وحين فاتح عائلة روشين، سد عليه الأب المنافذ، وحين أخبره بأنه شيوعي ولا دين له أصلاً ومستعد أن يحج إلى لالش ويفعل ما يريدونه، رد الأب بصرامة أشد:

ربما لم تعد مسلماً كما تظن، لكن مهما فعلت لن تصبح إيزيدياً.

لم تكن تنقصه الغرابة أحياناً، فحين يسكر كان لا ينصت إلا إلى تلاوة عبد الباسط عبد الصمد.

وفي الليلة التي سبقت فراره مع روشين إلى لبنان سراً، كان الوقت قد تأخر كثيراً، أخذنا نشرب البيرة المكسيكانو في مطبخ العائلة، كانت تمطر، و كنا نكسر الموالح ونمصها، فيما هو ينشد قصائد رياض الصالح الحسين عن الموتى، ثم أخذ يتحدث لأكثر من ساعة عن الموت المشتهى في فيلم الليل.

وبينما كنا نشرب نخب بعضنا، وكان يتحدث جزلاً، قاطعه أحدنا بحماقة:

حكي بس حكي، يا أخي ليش ما بتترك روشين؟

فسكت تماماً وظل يحدق في السائل البني الذي يرغي في الكأس أمامه، ثم بهدوء فك سحاب بنطاله وأخرج قضيبه وأخذ يتأمل حيوانه الصغير بحنان.

لم تكن حركة إغراء أو استعراض فرويدية، لم يداعب حيوانه، وهو لم ينتصب، فقط كان ينظر إليه كصديق حميم فقد عزيزاً عليه ولا يجد ما يعزيه به.

ليلتها حدث صدفة وأن باب المطبخ كان قد ترك مفتوحاً، وكانت الأخت البلهاء قد أستيقظت لأمر ما، ربما ذهبت إلى التواليت، وبينما كانت تعبر الممر أطلت برأسها وشعرها الطويل من باب المطبخ في اللحظة التي كان الأخ يتأمل حيوانه فما كان منها إلا وأن أطلقت رصاصتها بشكل شيطاني: عكه عكه عكه عكه.

لم نلتق بعدها أبداً، كان قد عاد إلى حلب وأستأجر منزلاً بعيداً عن السريان، وعاش مع روشين حياة سرية لا تمت بصلة مطلقاً بمعارفهما السابقين مخافة انتقام أحد ما من أهلها، هذا ما عرفته منه حين أصبحنا أصدقاء على الفيسبووك منذ سنة وأصبح كل منا في جهة من جهات الأرض بسبب هذه الحرب اللعينة.

كان وزنه قد زاد مقدار أربعين كيلو وأصبح أصلعاً، لكنه كان ما يزال حالماً بحياة أخرى مشتهاة.

ألتقيته قبل شهر على السكايبي، كان منهاراً تماماً، فقد كانوا حسب ما أخبرني على متن السفينة التي إنطلقت من ليبيا وغرقت قبالة الشواطئ الإيطالية، بناته الأربعة فقدن في البحر، روشين أنقذت لكنها منهارة تماما وتسعف مرتين في اليوم إلى المشفى بسويسرا، أما هو فكان في مالطا، يبكي على السكايبي ويقول:

لَكْ بس أشوفون ولو ميتات.

بعدها فقدت أثره تماماً، فقط منذ أسبوع، رأيته وقد نزّل بوستات على الفيسبووك، هو أم غيره، لست أدري، فهو لم يرد على رسائلي الخاصة، ولا النكزات، ولم يبق أمامي سوى صوره وصور العائلة وبوستاته الأخيرة وجميعها قصائد رياض عن الموتى، أقرأها الآن بعد ما يقارب عشرين سنة وكأنها المرة الأولى، أقرأ عن الفنان الميت الذي ينظر إلى عظم الكتف الذي ربما يصلح لصنع طائر، عن الجميلة الميتة التي نظفت قبرها وجلست لتحلم بثوبها الأزرق، عن الولد الميت الذي يدور في فناء قبره ممتطياً دراجة من العظام، وعن العاشق، العاشق الميت الذي يحفر تراب القبر، بالأظافر والأسنان، ليصل إلى من يحب.

نان هات

بدأ الأمر بصورةٍ نادرة لحياة نديم.

وحين تعرّت هالة الفيصل في ساحة إسكواير تايمز بنيويورك إحتجاجاً على حرب أمريكا في العراق، نزّل الصور من موقع أمريكي على الأنترنيت، وقال وهو يريني (stop the war) المكتوب بالأحمر على كامل الظهر العاري نزولاً حتى خط المؤخرة:

مناهضة الإمبرالية لك، أما الجسد لي.

كان عازباً على مشارف الخمسين يسكن في منزل واسع في محطة بغداد ورثه عن العائلة، لا يقوم بعمل محدد، ويعتمد على ما ترسله شقيقته المقيمة في أمريكا، يسكر مع شلة أصدقاء أو وحيداً، ينام، ويقرأ، وأحياناً يعتزل في الشقة شهراً، ويخرج غالباً لينزه كلبه، "أحياناً حين أخرج، أرى محلاً قد أفتتح جديداً، وآخر قد أغلق، وكأنني صرت في حيٍّ آخر."

رأسماله كان غرامياته، ومع السنوات كان قد حوّل إحدى الغرف إلى متحف للجنس حيث جمع وصنّف ورتّب ما توفر له من صور وأفلام وكتب تخصّ الإيروتيكا، وتوصل إلى إستنتاجات من قبيل: "الجسد الأوربي مهما كان جميلاً ومتناسقاً، يبقى الجسد عندنا أشدّ إثارة" أو "إن وضعية 69 هي الوضعية الوحيدة لتبادل الحب بعدالة."

ومع الحرب بدا أشد ضراوة في علاقاته، وبينما كانت الطائرات تقصف، كان ليبرهن – أن الحياة أقوى - يشاهد فيلم "المطلوب رجل واحد " ويتجنب أية إشارة للإشتباكات أو الحواجز أو القتل والخطف، بل يجادل كما لو أنه يعود ذاك الشاب اللامع الذي تخرّج بإمتياز وكان يحضّر إطروحة لنيل الدكتوراة في تاريخ الفن، ويراهن بحماس على أن المشهد الذي تخرج فيه إغراء عارية تماماً من النهر وتتمايل على حصى قرب الضفة هو الأشد إثارة في تاريخ سينما البورنو، وأن إغراء تضاهي حتى جينا جيمسون.

حين ذهبت لتوديعه قبل خروجي يائساً من حلب، كان سكراناً، وكانت الكهرباء مقطوعة، إستقبلني بلمبة شحن صغيرة وقادني في الممر، ثم أطفأها وتتبعته بصعوبة نحو الشرفة المطلة على الحديق العامة بزاوية حادة، أجلسني قربه حول ترابيزة بلاستيكية وقال:

أظنك كنتَ على صواب، ليس بالجنس وحده يحيا الإنسان.

إبتسمت له إبتسامة بالتأكيد بدت غير مرئية في تلك العتمة وأظنه أحس بها، وتصنّعت البراءة (لأنني كنت فقدت الإيمان بكل شيء و لم أخبره بقراري):

كيف ذلك؟

كان قد أُستدعي صباح ذلك اليوم كشاهد في قضية طلاق تخصّ صديقاً له وذلك أمام محكمة ثورية شكلّت على عجل من حرفيين – أحدهم كان حداداً ويدعى دفزنكار أي ذو الفم الصدئ –يحتكمون إلى العُرف والمزاج و يجهلون القوانين جهلاً مطلقاً، وبينما كان صديقي يدلي بشهادته، وعلى حسب روايته، فتح أحدهم باب القاعة ونادى: نان هات أي وصل الخبز.

و لم تمض ثواني حتى كان وحده في القاعة يتأمل الكراسي والأثاث إذ خرج القضاة ولجنة الحكم وتركوه وحيداً وليعودوا بعد خمس دقائق، وكل واحد منهم يحمل ربطة أو ربطتين من الخبز، وبل بعضهم فتح الربطة وأخذ يتناول رغيفاً.

لحظتها لم يكن أمام صديقي سوى أن يبتسم ويراقب ويلعن في نفسه ذاك الصديق الذي طلق زوجته، ثم نظر إلي وهو يبكي وكأنه ما يزال في قاعة المحكمة وصرخ:

أُو لَكْ هدا إبن الحرام لمّا بينيك ما بيتذكرني، أُو لمّا بيطلّق بيقول تعْ خلّصني، أُو لَكْ كس ......

سيلفيا

كنت أفضّل الممتلئات، plus size model، جميلات القرون الوسطى، الودودات الولودات كما أتخيلهن، ذوات الأفخاذ اللواتي يمتلئ الفم باللعاب حين نشدد على حرف (تش) ونلفظها بالكردية (إي بقالتش)، لكن دائماً كنت أتعثر بالمعروقات، السوداويات، المكتئبات، الخجولات اللواتي عانين من حب الشباب طويلاً، ولعل أشدهن غرابة كانت تلك التي تعلقت بها قبل ذهابي إلى الجيش بستة أشهر، وكانت تسمي نفسها سيلفيا، خطر في بالي كثيراً أن أسألها ولم أفعل، هل تعرفين تيد هيوز، أو هل قرأت رسائل عيد الميلاد؟

سيلفيا كانت نحيلة ترتدي الملابس الضيقة وكل ما يخص الإيمو من إكسسوارات ورتوشات، الملابس السوداء، الشعر المسبل المتروك منسدلاً على الوجه، سماعات الهيدفون في الأذن، وطوقاً جميلاً من القماش ذو مربعات بيضاء وسوداء صغيرة ما زلت أحتفظ به ، وكنا معاً نحيا في سماء من الأغاني العاطفية، أنت لي، أنا لك، لا أستطيع لا أستطيع، سأنتظرك، أغني لها "خوزيا هيفي بيك باتانا" وتغني لي عن رجل يدعى محمد أو ممد كما ينطقه الأتراك يذهب إلى الحرب ولا يعود، وكانت كلما وصلت إلى اللازمة التي تقول: "آآخ ممدم، جانم ممد" تضغط على يدي وتبكي.

سيلفيا كانت تعمل عند كوافيرة نسائية مما كان يترتب علينا أن نقضي يوم الأثنين وحسب بصحبة بعضنا، نجوب حلب من الأشرفية إلى السبيل، من ساحة سعدالله إلى الحديقة العامة إلى العزيزية فالسليمانية، تظل بجانبي تمشي بكتفين منحنيين، اليدان في جيوب البنطلون وتنظر إلى مقدمة حذائها فيما أضع يدي على كتفها، تحيط بكلينا غيمة الموسيقى التي تخفف من وطأة البدن وترفع الكائن عن الأرض، ونظل نمشي حتى العاشرة مساء حيث تعود إلى بيتها الذي يشاركها فيها ستة أخوة وأربع أخوات والأب الذي لم تلفظ إسمه بل كانت تسميه "بيناموس" أي عديم الشرف.

بيناموس كان يمت إلينا بصلة قرابة بعيدة، سكرجي، طلق زوجته، و كان معلم أراكيل في مقهى شعبي في بستان كليب، لكن أمي كانت تقول أنه ليس أقل من قواد، يسوق الزعران وولادين الكلب أمثاله إلى غرف القحبات في فنادق باب الفرج.

ذات جنازة عائلية، وبينما كنا نحفر القبر أقترب منا وجلس على قطعة بلوك وأخذ يراقبنا.

لم يكن مبالياً لا بالميت أو الجنازة أو الجميع، لكن حين بدأ الشيخ يلقن الميت، لم يتمالك نفسه وأخذ يجهش بالبكاء، أستغربنا ما حدث، وبينما نحن ننظر إليه بطرف أعيننا مد يده إلى جيب جاكيته ليخرج ما يجفف وجهه لكن لم تظفر يده سوى بفضيحة تحولت إلى نكتة لكثرة ما تداولناها، إذ أخرج كلسوناً نسائياً، أبيض اللون برسومات على شكل قلوب وفراشات حمراء، فما كان من عمتي سوى أن أثبتت حكمتها مرة أخرى، أقتربت منه وأخفت الكلسون بحركة سحرية، ناولته مناديل كلينكس، وربتت على ظهره بصوت أمومي رغم أنها في عمره: الله يرحمو يا ابني.

كس أم الكتابة

كس أم المصاري.

ولكي يبدو النص جميلاً نظيفاً سأكذب وأقول أن المسبّة لم أقلها، بل كانت ريتا تقولها حين كانت تهزّ أردافها من فوق طاولة كبيرة مدت تحت الأشجار في القسم الصيفي من ناد في الموكامبو يَؤُمّه الميسورون، كان الوقت حاراً في آب وكان العرق ينزل من عنقها حتى يغطي كامل وشم أرنب البلاي بوي بين الثديين، من الأذنين المنتصبتين إلى العين اللعوبة إلى ربطة العنق على شكل الفراشة.

ابنةُ عائلة كاريبية مهاجرة، تعلّمت الرقص الشرقي في شيكاغو ثم وقعت عقداً عن طريق سامانثا لتجد نفسها في حلب صبيحة اليوم الأول من عيد الأضحى سنة 1980 وتلاحظ كيف كانت الدبابات تصفُّ فيه على طريق المطار والضباط يدققون في الباسبورتات بعنجهية.

سام كانت تعيش مع جون وجون كان مثليّاً ويحاول أن يتقرّب من موظف مكتب الإستقبال في الفندق جورج، نفسه الذي كانت تعامله سام كبُوي فريند.

كانت ريتا تتحدث لجورج عن معنى الخطيئة في ذات الفجر الذي اختطف فيه خالي وهو خارجٌ من مسجد شيخ فارس وأضافت وهي تقبّل حلماته مداعبةً:

الأفكار الآثمة لا تحضر إلا أثناء الصلاة، وفي الوقت نفسه ليس من الضرورة أن تكون الفكرة التي ترد في التواليت قذرة، مكملةً وهي تعمق غمازتها اليسرى:

أو جليلةً حتى، حسبها أنها فكرة وبشرية.

كانوا يخضعون لطرق تعذيب شتى وبينما كانت ريتا تميل تحت شجرة الزنزلخت على نغمة "أنت عمري" كان جورج يعزّي نفسه بالكلام عن الحب وكان خالي صامتاً يفكر في طريقة التعذيب الأشد برأيه التي اختبرها في اليوم الذي سبق، قطراتُ الماء:

مددوه في الظلام ووثقوا يديه ورجليه وثبتوا رأسه بحيث يكون الوجه نحو أنبوبٍ في الأعلى وبحيث تسقط قطرةُ ماء كل دقيقة في منتصف جبهته، قطرةً قطرةً كان الظلام يشتد والماء

يصبح أثقل وأقسى وأحد صوتاً حتى غدت القطرةُ بصقةَ ذئبق، عضةَ كلب، وهمَ رصاصةٍ تحرق ولا تترك ثقباً أو دماً.

بقي جورج في السجن، يعذبه أنه لا يعرف تهمته، يعذبُ أهله أنه مفقودٌ فيما خرج خالي ليعوي بعد أشهر:

أز ده قوزي ديكه خوديه نم

أز ده قوزي ديكه...

شاتماً كس أم الأكراد والدولة والله والحياة.

إذا كانت يهمها أن تبقى نظيفة،

كس أم الكتابة.

الأخيرة لي.

ستاندارد

كان الأستاذ.

وحين وصل إلى مدرسة قسطل كان يزن ١٣٧ كيلوغراماً، مربوعاً، متزناً، يهوى الشطرنج والجدل وكتب دار رادوغا التي كان يقتنيها من شارع القوتلي، ولم يستغرق طويلاً حتى وجد من يبدد معه وحشة الريف بالنظر إلى الجنود والأحصنة والأفيال والقلاع والوزيرين وملكٍ لا بد أن يقف مزهواً بوحدته في النهاية، كان يربح دائماً حتى حلّ الوقت الذي لم يعد فيه ينظر إلى الرقعة أو وجه الخصم بل إلى حيث تتحرك ابنة الخصم، طالبة الكفاءة، بين المطبخ والغرفة الأخرى والدفاتر والتنتنا والمرآة وتمارين المكياج وظلّ الأم القادرة التي كانت تراقب كل شيء بطرف العين وتديره بخبث، لم تقل له سوى أنها ما تزال صغيرة ولم تشترط عليه سوى أن يخسر، فخسر الجنود والحصانين والفيلين والقلعتين والوزير والملك وخسر في الكلام و خسر ثلاثة أرباع عقله حين أخذ يدخن في اليوم ثلاثة باكيتات حمراء طويلة وزجاجتي عرق واحد ليتر وخسر النوم وخسر قمصانه وبناطيله ومعطفه وملابسه الداخلية حين خسر ، الأهم المشترط عليه، ٧7كيلوغراماً حتى لم يعد يميزه أصدقاءه القدامى حين كان ينزل حلب ولم تبق لديه سوى كتب دار رادوغا التي كان يقتنيها من مكتبة الفجر التي تحولت بدورها مع البيروسترويكا إلى محل للكنافة حين لم تعد الأمطار تهطل في موسكو حتى تُرفع المظلات في حلب.

كان شعره قد شاب تماماً، عجوزاً معصعصاً في الخمسينات، مدير مدرسة على وشك التقاعد، لست متأكداً كانت مدرسة عدنان المالكي، جول جمال، مازن دباغ، وجيه عبدالدايم أو اسم شهيد آخر، يعاني من الحكة المزمنة، يتذمر ويغضب لأي سبب كان كما أخبرتني شيرين (الحبيبة عند الأكراد لا بد أن يكون اسمها شيرين) قالت شيرين أنه مثلاً، المكدوس، يغضب إذا كان الحدّ أي الفلفل الأحمر فيه حلواً أو حاراً، أو الملح زائداً أو الباذنجان كبيراً قليلاً أو غير مسلوق كما يرى هو، أو الجوز ليس دسماً أو اللوز ليس مجروشاً كما يرغب، والثوم ليس مدقوقاً جيداً أو الزيت خفيفاً أو، أو، أو، وفي اليوم الذي اصطحبتني معها، لتقدمني إليه، وبينما كنت أتأمل مكتبته، وما أن نطقت شيرين :بابا، هدا محمد اللي......، حتى غضب وقال: ماني بابا، أنا خرى،...... وبدأ يلعن ويشتم ويرغي ويلعي، أصبحت شبه أطرش، فقط كنت

أرى فمه ينفتح وينغلق، ولم أسمع واضحاً سوى :اللي بدو يدخل بيت عالم وناس بيجي من الباب، مو من طيزي، وبالطبع لم تكن طيزه تتسع لي رغم نحولي حينئذ لأخرج منه، بهدوء أخذت عيناي، لتحفظان ماء الوجه، أخذتا تتحركان بلباقة على دوستويفسكي، تشيخوف، غوغول، ليرمونتوف، شولوخوف، تولستوي، كوبرين، تورغينيف، الأم، ما العمل، كيف سقينا الفولاذ، وداعا غولساري حتى وصلت الباب الذي خرجت منه إلى السريان القديمة جانب محطة العدس لأمشي وأمشي حتى أتعلّم كيف أدخل وأتزن وأهوى الشطرنج والجدل والطبخ مكتسباً غراماً وراء غرام لأصبح في وزنه الستاندرد حين وصل مدرسة قسطل ذات يوم، ومع الحرب المباركة التي نغار جميعاً عليها ونعمل على ألا تنتهي، بدأت أخسر، شيئاً وراء شيء، حتى لم تعد الخسارة تثير الغرابة، خسرت كل شيء إلا هذه ال ١٣٧ كيلوغراماً وفعلت وما أزال كل ما ظننته المستحيل لأخسره ولم.

القمصان البرتقالية

تصل يولا أولا.

تسلم معطفها للموظف عند الشباك الذي على اليمين وتروح وتجيء بين قاطعة التذاكر والذراع المعدنية للحاجز الأوتوماتيكي القلاب.

حين يأتي شابان أنيقان دون صحبة تطلب من أحدهما أن يدفع عنها بطاقة السبعة يورو لأنها نسيت جزدانها في البيت وحالما يفعل تظهر مارتا ليدفع الشاب الآخر عنها ويدخلون.

يولا الممتلئة ذات الشعر الأحمر القصير تؤكد أنها من سلالة مدام فالفسكا التي ضحت بنفسها من أجل إنقاذ البلاد فأحبها نابليون بعمق لتظل معه خلال الشتاء الذي دمر فيه جيشه في إيلاو.

لا تتكلم سوى البولندية لكنها تتقن الرقص ولف الذراع حول الخصر وإخراج قطعة الشوكولاتة في اللحظة التي يجف فيها الحلق.

مارتا بإنكليزية خفيفة تعلن أنها سيدة نبيلة وثم بكعب قداحتها تطير غطاء زجاجة البيرة في الهواء مطلقة وراءها (شيت) طويلة تفرقع في البار.

يولا تحب القمصان البرتقالية على البناطيل البيضاء، مارتا، الزرقاء على السوداء وتعلن ببرود وقح:

حتى لو حضت دماً برتقالياً لن تصبحي هولندية.

في الثالثة بعد منتصف الليل ترافقان رجلاً محلياً أو تركياً أو مغربياً، لا يهم طالما لديه سيارة ومنزل.

في الثالثة بعد منتصف الليل يخرج وراءهما بقليل شاب أشقر من باب الديسكوتيه سكراناً ليطلب سيارة أجرة أو ليسرق دراجة.

نابليون، ماي نيم إز نابليون، يقول البولندي الشاب للبوليس وهو يخرج قطعة عشرة يورو غامزاً: إذا تكلم المال يسكت الإنسان، ثم يبكي ويقعد على الأرض ليلعن دائرة الهجرة ويولا التي تخونه.

تمضي سيارة البوليس بعد أن تدله.

لا سيارة أجرة حتى ماركينيز ولا اليوروات العشر تقنع سائق أجرة أن يحرك مؤخرته.

يغني نابليون وهو يقفز.

يقفز ويترنح.

يمتد الطريق في السهول حتى يختفي نابليون وهو يقفز ويغني.

زهرة جهنم

لا أحد ذهب إلى جهنم ولا أحد عاد من الجنة، لكننا جميعاً قال مضيفاً، خبرنا هذه الأرض، ونستطيع أن نتحدث عن ذلك بوضوح.

قابلتهما في بارين بين كاديكوي بإستانبول والطابق السادس حيث مطعم Stradivari مطلاً على ميلان في فخامة إيطالية كلاسيكية لا تُضاهى، وكما يحدث في البارات لم أرَ أي شيء لكني صدّقت كل شيء.

كان يغني:

مي نه نوشي شيخي صنعان غلط، ئو نه چو ناڤ أرمنستانه غلط،

لم يشرب شيخ صنعان النبيذ سهواً، لم يرتحل إلى بلاد الأرمن خطأً.

وصدّقتُ بأنه كان بطلاً من هذا الزمان، وأنه كان في القفقاس، وكان ضابطاً، وأنه رأى حصاناً يُسرق، وامرأة تُختطَف وطفلاً أعمى يعمل مع قوارب التهريب، وحين صمت لخمس دقائق أهملته يردد بينه وبين نفسه (كُزبرة)، تارة يضيّقُ عينيه، كُزبرة كُزبرة، تارة يغلقهما، كُزبرة كُزبرة، وظلّ يتسلى بلعبته مائلاً الزاي سيناً، قالباً الباء ميماً ثم قال:

كل المنايك يتشدّقون عن العزلة، ولا أحد يستسلم لها حتى يرى زهرتها، ناعمة وتُدعى أيضاً زهرة جهنم، وأردف بحكمة صلبة، زهرة العزلة صفراء، نارية بخمس تويجات خفيفة على عود أخضر رهيف، من السحر وتُفيد في الباه، أي السيكس، قالها ضاغطاً على أسنانه وكأنه يصحّح خطأ الوجود، وشارحاً أسهب وهو يدير عينيه في البار بثقل:

وأنتَ بين فخذي امرأة، أية امرأة كانت، أمسك زهرة العزلة وقرّبها من الشفرتين فتقفان كأذني ذئب، شمّم فقط لتنفتح عين الظلام، فلا إنهاك لك يا ذكر النحل ولا إجهاد، ثم قال:

احذر أن تمسّ بتلات الزهرة بشرة الزنبور أو جلد الحشفة فتودي بها إلى التيه وبك إلى الهلاك.

وأراني صورتها على الآيباد وقال: هذه.

دققت ولم أستطع، سكرة البيرة أشد، لكن فهمت أنها وصلت إيطاليا في منحة دراسية، وأن أحد أفراد البعثة الأثرية التي عملت معهم في ترميم قلعة حلب ساعدها، وأنها تعاني من الربو، وهو على قلق أن تنتحر في أية لحظة لولا ملائكة الرحمة، أصدقاء الفايسبوك الجميلين، فسبق لها وأن كتبت ستاتوسات أنها أحضرت مسدساً أو أن تحت لسانها شفرة أو أن فص خاتمها مليء بلعاب ثعبان من ثعابين الفراعنة.

قلت له: هل قابلتها؟

:لا.

وسكت بعدها تماماً، حاولت أن ألطّف، وحكيت قصة ريفية ساذجة عن فتى اصطحبه أبوه معه ليخطب له، وعادوا دون أن يراها، سألوه: ثم؟ قال: أحببتها، صوتها جميل. ولكن لا، لم يتكلم، ولم يمض أسبوع حتى كنت في باص، والباص كان على باخرة بين إستانبول وإزمير لأكون في ميلان فيما بعد، وحتى كان قد أعيته الحيلة وعاد إلى حرب حلب ليختفي في منزله بعد شهرين حيث سقطت قذيفة ولم يعثر منه إلا على ذراع وقدم ورأس وجذع مشوه لا يمت للبشر بصلة.

في ميلان نمت ليلتين، إحداها كانت في نفق لعبور المشاة، وما من حاجة للتباهي ببطولة من نوع ما (كل اللاجئين وحتى غير اللاجئين، ناموا وينامون في الغابات والعراء والأنفاق) والأخرى في فندق Andereola على بعد ٥٠٠ متر من المحطة المركزية، سينتشرالة، نمت ما إن وصلت لأصحو في الليل، ولا أجد ما أفعله سوى البار.

حول طاولة خشبية وعلى كراس عالية لا مسند لها، ومع البيرة مرة أخرى، كانت الطيور تحلق مع فريد الدين العطار وتجتاز الأودية السبعة من الطلب حتى الفناء مروراً بالإستغناء، وكان شيخ صنعان في الدير يقبّل الصليب، نسي الصلوات جوار الكعبة وأخذ يمرح مع الخنازير منتظراً الصدفة التي ستجعل النصرانية تندم بعدما تسقط الشمس قربها، قالت مي نه نوشه: حتى غيوم ميلان ليست كغيوم حلب، وأكملت:

بين الحيرة والحسرة يمتد الكون من اللابداية صوب اللانهاية، لا أخشى أحداً، لا أخشى سوى نفسي، وبالعقل البارد نستطيع أن ندين كل شيء حتى العقل البارد نفسه، لكن هنا..، وحطت يدها اليمنى على القلب، قلبي، ثم سحبتها لتحطها على قلبها وأكملت وكأنها تنيّم طفلاً لا ينام:

الأرض على ظهر الثور،

الثور على ظهر سمكة،

السمكة في الفضاء،

توقفت للحظة وأغمضت عينيها وتساءلت:

"وعلى أي شيء أستقر الفضاء؟"

شهقت شهيقاً طويلاً، ثم زفرت وهي تهزّ رأسها يميناً يساراً:

"لم يستقر على شيء مطلقاً، فلا شيء إلا العدم".

كانت ميلان تطفو في مياه رأسي، ورأسي كانت على طاولة الخشب تغفو بين غيوم الطابق السادس، قامت لتخرج، بالكاد نظرت إليها لألمح وشم نبتة الكزبرة خضراء تلمع خلف أذنها اليسرى، كان وجهها كما بدا في يده في تلك الليلة، أما صوتها فكان متعباً من الربو لكنه كان جميلاً حقاً؛ بدأ واضحاً ثم أخذ يخفت حتى بدا كأنه لا يخرج حتى يصل:

لا أحد

ذهب إلى جهنم، ولا أحد

عاد من الجنة، لكننا جميعاً......

شحّاذ

بين الكمب الذي أقيمُ فيه منذ أن حصلتُ على الإقامة وبلدة إيميلورد 9 كيلومترات نقطعها على طريق واحد مستقيم لا انعطافات فيه ويستغرق بالدارجة بين نصف ساعة وساعة حسب نوع الدراجة وهمّةِ راكبها والأهم حسب درجة الرياح، ولحسن الحظ فإن طريق الذهاب عكس الريح وطريق الإياب معه حيث نكون متعبين وقد تبضعنا من المحلات الثلاث الشهيرة والموجودة في كل بلدة هولندية، كبرت أو صغرت:

سيكوند هاند أي محلُ الأشياء المستعملة، الأكتشن حيث الرخيص لكن بجودة أقل، وليدل، السوبر ماركت الأكثر انتشاراً.

في ذلك اليوم لم يكن لدي شيء مطلقاً، قدتُ الدراجة إلى هناك رغبة في التخفيف من السأم الذي نعانيه في الكمب، وكل شيء كان سيبدو عادياً لولا أني لمحتها في طريق العودة تقود دراجتها من طريق فرعي وتقترب، وكنا سنلتقي حين يلتقي الطريقان، قبلها بقليل، أو قبلي بقليل، لولا أنني أسرعتُ قليلاً وقدتُ الدراجة بتلك الحالة المحلّقة التي يعرفها سائقو الدراجات حيث تصبحُ والدراجةَ شيئاً واحداً، تنسى جسدك، ارتباكه، علله، وظائفه، تنسى هيكل المعدن، تنسى تماماً الدعاسات والجنزير والفرين والمقود والجرس والخُرج، كل شيء يجري كما لو أنك طائر وخاصة إذا كانت سماعات الأذن أورجينال ومطبقة على الرأس تماماً، وحصل فعلاً أن سبقتُها، نظرتُ خلفي ورأيتها تنظرُ إلي، كانت قد أحست تماماً أنني أجاكرها، الحقيني إذا استطعت، وبقيتُ على سرعتي نفسها متجاوزاً شابين صوماليين ومسنّين هولنديين وشاباً باكستانياً أعرفه كان يتأتئُ بصعوبة بالغة، ولم تمضِ لحظات حتى تجاوزتني وهي مستندة بكامل جذعها على المقود، ثم نظرت خلفها بعد أن استقامت وضحكت ضحكةً بدت خرساء وأخذت تقود باليسرى فقط بينما أخرجت باليد الأخرى شيئاً تأكله، كانت ترتدي قميصاً بطيخياً على جينز أزرق خفيف، وكان القميص ينحسر قليلاً ليكشف عن لباس داخلي أبيض، في الخامسة والعشرين تقريباً، لم تكن هولندية بالطبع، ووجهها كان حنطياً ومحيّراً في التخمين، بين أن تكون لإيرانية أو عربية أو كردية، أسرعتُ لألحق بها لولا أن أنسلّت ورقةٌ مطويّة من جيب بنطالها الخلفي، توقفتُ لحظة والتقطتها ثم قفزتُ على الفور وأخذتُ أضغطُ بكل قوتي على الدعاسات مقترباً منها وكدتُ أتجاوزها حين رمت نحوي ما كانت تأكل، تفاحتها، أمسكت المقود باليدين، لم أكن جائعاً البتة، ولحظتها لم أفكر بأنها مناورةٌ منها ولا بشيء آخر، فكّرتُ بالتفاحة المأكولة نصفها تقريباً وهي تطير في الهواء، كانت من النوع الأحمر، معضوضة في طرفٍ عضة كبيرة

نفذت حتى البذور، طازجة، بلّورية، وهي تتأرجح في المسافة بيننا وتلتف حول نفسها تحت أشعة الشمس لمحتُ قطراتٍ تشرّ منها حتى كادت تشكل خيطاً لامعاً في الضوء، ربما من سلاڤ التفاحة، ربما من لعاب الفتاة، ربما ممتزجان معاً، تركتُ المقود وانحنيتُ للأمام حتى لامس كتفاي رأسي المقود، حينئذٍ تمكّنتُ من التفاحة، أمسكتها بين الكفين، كدتُ ولم أقع، لكن انحرفت الدراجة قليلاً وحتى استعدتُ السيطرة عليها مرة أخرى كانت قد تجاوزتني لأكثر من خمسين متراً.

أسرعتُ بعدها وأنا التهم تفاحتي، ما تبقى من تفاحتها، لكنها كانت مسرعة أيضاً، وظللنا نسير على المسافة نفسها، متقدمة علي بالخمسين متراً، فواحداً وخمسين متراً، ومتراً متراً أتسعت المسافة بيننا حتى شعرتُ بالعجز وأنا أراقب ظهرها الذي أخذ يبتعد شيئاً فشيئاً متحولة إلى نقطة فلاشيء، لم أرها بعد ذلك أبداً ولا قبلها، وعادت الأيام تمضي والساعات تطول أما ورقتها التي يبدو أنها كانت مشقوقة من دفاتر كورسات اللغة، كانت ورقة أطفال حقاً، ممتلئة بشخبطاتها، في جانب قائمة مشتريات بسيطة:

معكرونة، كمون، جزر، طون 3، جبنة بيري، جريش (سميد خشن)

في جانب:

De Haven: الميناء

De boeg: مقدمة السفينة

De Kompas: البوصلة

Het anker: المرساة

De Haven: الميناء

في الأعلى:

18 نوفمبر عام 1915

أودري مونسون

أول امرأة تتعرى كاملة في السينما

في الأسفل التزامات مالية، باليورو تبدو:

1000 يونان

750 تركيا

1330 بابا

750 محمد

430 سحر

وفي المنتصف دائرة، كانت الأيام تمضي وأنا أقلّبُ الورقة على قفاها وكلما كنت أطيل النظر فيها كانت تصبح بيضاء تماماً لولا ظلال الوجه وكان السأمُ الأبيضُ يتشوه ببقعةٍ بنيّةٍ من القلق لا معنى له، في المنتصف فقط، في الدائرة، كان ينهضُ ما يبدو اقتباساً باهراً لن أستطيع نسيانها ولا نسيانه:

الإنسان إلهٌ حين يحلم،

الإنسان شحّاذٌ حين يفكّر.

حلمتُ بطير

حلمت بطير، كان حلماً، لكني كنت سعيداً.

في قاعة الانتظار بمحكمة دينبوس في هولندا، يجلس اللاجئون بعد أن وصلوا من الكمبات التي قضوا فيها فترات متفاوتة، لا بأس، أغلبهم سوريون وفلسطينيون سوريون، وهذا لا يعني أنك لن تجد آخرين من البلاد السعيدة، النيبال، إيران، الصومال واريتريا والنيجر، الصين، العراق، البوسنة وصربيا وحتى تركيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء.

يستلم كل واحد كيساً فيه كرواسان وجبنة الشرائح ومكعب مربى وعصير تفاح، وإضافة إلى ذلك هناك ماكينتان غامقتان كبيرتان لتحضير الشاي، والقهوة والنسكافيه والماءالبارد والشوكولاتة، تختار درجة التركيز، ودرجة السكر، بحليب أو بدونه وتضغط لتئز الماكينة لدقيقة بينما تراقب خط ضوء أحمر ينبض من الشمال إلى اليمين، ومن اليمين إلى الشمال، وتقرأ مطمئناً:

Your drink is being prepared

من وقت لآخر، يظهر على الباب، محام وبرفقته مترجم، المحامي أو المحامية غالباً تكون بملابس سبور وبحركات مرحة تتحرك وتخاطب، فيما المترجم وجميعهم من اللاجئين الذي مضى على وجودهم زمن كاف ليتعلموا الهولندية بإتقان وليتعلموا ارتداء الملابس الفاخرة من الكتان والمخمل والجينز بتكلف ظاهر في الأناقة والاتيكيت وتصفيف الشعر والمكياج، ثم يتدرجان، المحامي والمترجم، في الممرات والأسانسور، يتبعهما اللاجئ، وقد أعاد في رأسه القصة ألف مرة ومرة، القصة مبتورة، هشة، محبوكة، متبلة، معادة، مكررة، مختلقة، حقيقية، هجينة، باهتة، رزينة، تبدأ ببيت يهدم ولا تنتهي بقتل، تنفلت منه، ترتد عليه، ينجده الحظ، أو ينقذه الايقاع والهشاشة والبكاء حيث ينبغي ألا يكون بكاء، والامتناع عن الضحك حيث ينبغي أن يكون الضحك، ولا تمنح القصة صفة إلا في اللحظة التي تستلم فيها القرار، قرار الإقامة، أو لا تستلمه، وحينئذ يبدأ اللاجئ في مونتاج قصته للمرة الأخيرة مؤقتا، وهذه المرة ليس للمحكمة والمحقق، بل للأهل في البلاد التي جاؤوا منها، وللأصدقاء القدامى والجيران الجدد وللأبناء والأحفاد وذلك بصياغة المنتصر الذكي القادر المشفوعة ب" الحمدلله رب العالمين"، أو صياغة القليل الحيلة المغلوب على أمره المطعمة ب" خراي عليهم" و بغضب الخزي واليأس ومرارة العجز والخذلان.

حين جاءت أفسانه، إيرانية من ماندائية الأهواز ومتزوجة من سوري، وقالت:

كيفك؟

قلت:

ولا شي، ركبي بيوجعوني.

كان قد مضى علينا في القاعة ثمان ساعات بينما مضى المحظوظون في أوقات مبكرة في باص الثانية عشرة أو الثانية، كانت على وشك البكاء فالمحامي أكد لها أنها سترفض ولن تنال إلا الطرد والعودة إلى اليونان حيث الزوج والأطفال الأربعة، وفي أفضل الحالات ستمنح الانتظار الذي سيعني أن تدخل في متاهات عد الأيام والإستئناف والعيش مع الغرباء والوقوف المتكرر في رتل الطعام والمشي اللامجدي في الطرق القصيرة للكمبات المؤقتة.

في باص العودة، استسلمت للحيرة في أي عزاء يمكن أن أقدمه لأفسانة، كانت ستختنق وهي تنقل نظرها بين الأرقام الفوسفورية لساعة الباص وبين شوارع دينبوس التي تغلق باكرا كأي مدينة صغيرة، ولأفعل شيئا، قلت لها:

- أفسانة،

- نعم،

- ماذا كان يعني اسمكِ بالفارسية؟

- قصة،

وابتسمت ثم أدارت رأسها نحو الخارج،

تنهدت وأضافت وكأنها تحدث شخصاَ بعيداً:

- قصة طويلة.

بندقية

كان لدينا ضيوف، وكان أبي يروي حكايةً من حكايات خوجه نصر الدين، خرجتُ إلى الممر ولعبتُ اللعبة نفسها بينما كان صوته يصلني بكل وضوح، وقفتُ أمام مرآةٍ كبيرة منصوبة في مواجهة مرآةٍ أخرى كبيرة ونظرتُ إلى عيني لأصغر وأتكرر في المرآتين إلى ما لا نهاية.

كان خوجه يحفرُ بئراً فرأى فتحةً سرّية، أزاح الصخرة فدخل في مملكة الجنّ، قادته جنيتان إلى ساحة القصر، كانت العروس على كرسي وبجانبها لا أحد، أشار له ملك الجن فجلس بجانبها، وبدأ الطبل والزمر، ثم شرب معهم وقام ورقص، علّقوا له في كتفه عظمة طويلة هي ساق حصان، هذه سلاحك، وشرب حتى سكر حتى أمسك سلاحه مصوباً إياه إلى السماء، بوم بوم بوم، الطبال يطبّل تحت قدميه، الزمار يزّمرُ في أذنيه، بوم بوم بوم.

كان أبي يتوقف حينئذٍ، ويكمل بعد لحظة، قال ملك الجن لخوجه نصر الدين: قبّل عروستك قبل أن يأخذوك إلى ساحة الخازوق، ودون يفكر، يقبلها متحسساً جسمها ليكتشف أنها عنزة.

يركض خوجه والسلاح ما يزال على الكتف، يعبر الساحة، يركض خلفه جنيان، يركض نحو البئر، نحو الكوة، وهوب، يرمي نفسه فيها، لكن يمسك به الجنيان من قدميه.

يشدّ جسمه للأعلى ويشدّانه هما نحو الأسفل.

يقول أحدٌ له، خوجه ماذا بك؟

– إنهما لا يتركاني.

– ارفسهما.

– لا يتركاني.

– اخرى عليهما.

ويخرى عليهما خوجه ليستيقظ ويجد نفسه بجانب زوجته وقد خرى ببيجامته، ويضحك الرجال ويضحك أبي معهم حتى تدمع عيونهم.

رواها أبي أكثر من مرة، في أولها توقفت بعد الكوة وتملكني الفزع من الجن، وثم مع الوقت كنت انتظر، غير صابر، ليخرى خوجه وأضحك معهم على حماقته، أما في الليلة التي غادرت فيها حلب، كانت الحكاية تغلبني لكن دون أن أتذكر سوى مشهد رجلٍ مسحورٍ، أحمق لكنه صادق، يقفز كالمجنون في ساحةٍ واسعة مع عظم حصانٍ معلق على كتفه وهو على قناعة تامة أنها بندقية ودون أدنى شكّ.

العقلُ البارد

اقتنيتُ حوض سمك مع انتقالي إلى بيتي الجديد في أبريل 2011 وكأي حوض سمك كان قاعه مفروشاً بالحصى والرمل الخشن وفُتات القواقع، وتتدلى فيه أعشاب بلاستيكية وفي الخلف مصباح نيون أزرق وموتورٌ للفلترة مع خراطيم على طرف، وكانت مجموعة الأسماك عشرة من النوع البلدي، الأصفر والأبيض والأسود، أقل وأكثر بواحد، مع زوجٍ من الآنجل وزوج أخر من الزبّال يلتصقُ عادة بين الفلتر وجدار الحوض.

ويحدثُ أحياناً أن كنتُ استيقظُ في الصباح لأجد أحدها طافياً فأخرجه بهدوء وأقذفه قبل أن يراه طفلاي من البلكونة لتلتهمه قطة من القطط الكثيرة في الأسفل.

ثم أخذت الكهرباء تنقطع، وأخذت الأسماك تطفو أكثر إذ تختنق حين لا يُضخ الأوكسجين كافياً، وكل أسبوع كنتُ أعوض بأسماك جديدة.

الأكثر رعباً كان النوع الأسود من البلدي ذا العيون الجاحظة إذ قبل أن يموت بيوم كانت تتضخم إحدى عيناها أو معاً وثم تنقلع، تخرج من محلها وأحياناً تظلّ موصلة إليه بخيط أبيض من المخاط أو من الجلد، لستُ أدري.

كان الأمر برمته باعثاً على العبث، تطفو الأسماك، تُرمى للقطط، تُستبدل بأخرى لا تلبث أن تطفو في يومٍ آخر.

أصبحت فتراتُ انقطاع الكهرباء تطول، وقبل أن أترك البيت بيوم وأخرج من حلب استيقظت ُلأجد جميعها ميتة عدا واحدة فقط، تتحرك وياللغرابة من أرقها، الآنجل، وكانت ذات لون برتقالي، كانت تتحرك ببطء لكنها ما تزال حية، نظرتُ تارةً إلى الممر، إلى الضوء الذي يدخلُ بشراسة، تارةً إلى فوارغ الرصاص على البلكونة، أدخلتُ يدي إلى الماء وأمسكتُ الآنجل وأخرجتها، أخذت ترتجفُ، ربما يدي أيضاً، ربما انتقل الرجفانُ من أحدهما للآخر، وربما كلاهما معاً، كنتُ ما أزال أفكّر حين تركتها تسقط على الرخام.

كنتُ ألبسُ شورتاً وأقف بساقين متباعدتين فيما الضوء يسقط بأكمله على البقعة البرتقالية بين قدمي.

كل ما تلا ذلك اليوم وحتى الآن كان سهلاً.

تكفلت القطط بالأمر أولاً ثم العقلُ البارد.

كولين

من يدعى گولين لا بد أن يكون نحيفا وطويلا بشعر منكوش، رعى الماعز في الجبال وهو فتى، عزف على الطنبور أو عمل مدرسا وكيلا في الريف قبل أن يودع السجن لستة أشهر دون تحقيق، وربما كان عامل بناء، ومدمن شعر يرتدي نظارات طبية، أنيقا ومهوسا بورق اللعب :الحياة هنا، أكثر من الهاء زوجة داهية كيلا ينتف الأمير ذقنه، الإسكامبيل حياة، أنظر،

♥ الكنيسة،

♠ الجيش،

♣ الزراعة،

♦ التجار،

وكانوا ينادونه: كابجي أي المقامر، وذات مرة كان في مقهى الفرسان قرب جامع الشيخ طه وظل يخسر، وحينما راهن على آخر مئة ليرة معه، رفع أوراق اللعب العشرة، ووجد، يا إله الحظ، ست منها مصفوفة وراء بعضها، ثلاث بنات، ثلاثة عجائز مع الجوكرين وورقتين مختلفتين، لكنه ظل يسحب الورقة تلو الأخرى دون أمل حتى كاد الورق أن ينتهي من على الطاولة وليصف الخصم أوراقه قبله كاملة ويغلبه، ومنذ ذلك اليوم لم يعد گولين الذي يعرفه من حوله، اكتفى ببنطال جينز ومعطف طويل في الصيف والشتاء، كان يحمل معه ورقاته العشر ويدور في المقاهي ليستوقف من يصادفه:

إذا هادا الإيد معك، تفتح ولأ لا !

وحين أصبحنا صديقين كان قد عاد متأنقا وكان قد قضى سنتين عند طبيب الأمراض النفسية والعصبية عبد الخالق سلطان في شارع بارون، وسنتين في بيروت ثم أستقر فيها خمس سنوات أخرى، جلس فيها على البارات وخالط الكتاب وتعلم الفرنسية، ليعود بعدها بعرج خفيف في القدم اليسرى جالباً معه ديوان (كيمه أز) لجيگرخوين و(الشعر الفرنسي الحديث) بترجمة پول شاؤول وذكريات جورجيت التى كانت ترتاد معه ملهى في الغربية، وترقص له وهو يغني: سينغيه سبي بدرجو، ريه ناديه هرمه حجو، (الصدر الأبيض ذو الدرج، لا يفسح لي الطريق لأحج) ولكنه كان ما يزال عازباً، وينتكس كل عام شهرين إلى حالته، يصبح

شهوانياً وعنيفاً، يقول بأنه يستطيع أن ينيك العنزة، ويثرثر ويدعي أنه تطوع في معسكرات البقاع، وأنه قاتل في جبال آگري قبل أن يعمل سائقاً لدى عبد الله أوجلان، وأنه رافقه ذات يوم إلى كافيتريا على طريق البحر وشرب معه الويسكي، وثم يقول: الشعر عنا صف حكي، الشعر لازم يكون حياة، ولا يفسر أو لا يستطيع، وثم ينشد لجاك بريڤير، جان فولان وأوجين غليفك، وكان يكتب بالكردية والعربية ما أكاد أقول أنه بالغ السوء لولا أنه كان يبقيه سراً، ثم أخذت فترات جنونه تطول، فيدعي أن جورجيت كانت تخونه مع فلسطيني وأنه كان يخونها مع فلبنية، وأنه ما يزال يحلم برجل قتله قبل أن يعبر الحدود، لم يكن عدواً حتى، يكوم قبضة يده اليمنى ويهوي بها على رقبته ويقول: هكذا، بحجرة على البصلة، وأن الميت ينهض بجمجمته المطعوجة وعينيه البيضاوين ويضحك له في الليل، كان في الأربعين وكنت ما أزال في الثامنة عشرة، رافقته ثلاثة شهور قبل أن يصطحبني يومها إلى اجتماع سري كان يعقد في واحد من تلك المنازل البلوك وغرفتين ومطبخ في آخر حارة جبل السيدة، تكلموا فيها عن اللغة، عن جلادت بدرخان، عن كوردستان الكبرى، وصف من كان يحاضر بأنه عميل، ومن كان يجلس بأن منهم من هو لص ومنهم من هو قديس، ثم عرضوا مسرحية عن مم وزين، كان مسرحاً فقيراً على الأرض، وكان الممثلون هواة، ولا حبكة فيها سوى الصدفة، لكنه ظل يلف ركبتيه بذراعيه المتشابكتين، ويحدق في الممثلة وكأنها تخاطبه هو ولا أحد غيره، وحين تمددت لتموت مع حبيبها رأيت أنه كان يخفي وجهه بكفه اليمنى ويبكي، واستقلنا الباص متأخراً وهبطنا، نزلنا في ساحة سعد الله الجابري، كنت سأموت من الشاي الذي بقيت أشربه، وكان ساكتا حتى ذلك الوقت، كنت سأتبول في ثيابي، استأذنته لكنه أمسك يدي وقال: انتظر، ثم مد يده إلى جيب داخلي وأخرج عشرة ورقات، ثلاث بنات، ثلاثة عجائز والجوكرين وورقتين أخريتين وقال:

إذا كان معك هادا الإيد بتفتح ولأ لا،

وتركت يده في الهواء، ونزلت، كان البرد خفيفاً قرب مبنى الأزبكية ودرج القبو معتماً والتواليت مغلقاً، دون أن أنظر حولي، فتحت السحاب، أخرجت الرأس، شهقت وزفرت حتى شعرت أن البحر ينزلق على الحجر ليصل الزبد تحت قدمي فصعدت، لم يكن ليلاً ولم يكن فجراً، لا سلماً ولا حرباً، كان رائقاً وأزرق، مشيت ولم أراه حيث تركته، وبقيت أمشي حتى لم أعد أراه أبداً.

مرطبان العسل

قالت عمتي: "كمّلها بيشتو وأخذ شرموطته"، تتر ومحمد علي أكدوا أنها كانت تعمل في بيت للدعارة في الشيخ مقصود، وحين ضحك عدنان وهز رأسه و دندن "ناكم ناكم، ميرا ناكم" خمّنا أنه نام معها بالتأكيد.

وفي الصباح التالي الذي ذهبت فيه عمتي مع مفيدة وسعاد إلى جب القبة للتزود بمونة الجبنة، قال خوشناف وهو يسحب من يدي رواية "في معترك الحياة" لمكسيم غوركي التي أعارني إياها مدرسي عبدالرزاق حمامي لعطلة الصيف: لا تصدّق ما يقولونه، إنه فنان وسترى.

في المئة متر بين حمام آلمه جي والزاوية التي كان أولاد العسلية يديرون فيها محل الفول حكى لي خوشناف عن الحادثة الفريدة التي إكتسب فيها بيشتو لقبه، فحين ظهرت علامة الحمل على إبنة أخيه وهي بعد عذراء، أتى الجيران و الأقارب إلى منزله وحكوا عن إكتئاب أخيه وشكّه في إبنه البكر هفال، ثم دار لغط كبير فما كان من بيشتو إلا أن قام من مجلسه وقال ما حسم وأسكت وذهب مثلاً: يا جماعة، الإير إلنا والكس إلنا، ولا يتدخل حدا بيناتنا.

في منزله في قسطل حرامي بدا أنيقاً بنحوله ووجهه الحليق، قادنا من الممر إلى المطبخ، جلب المازيات وكأسين وزجاجة عرق وقبل أن يجلس ناولني علبة كولا، وحين قام إلى الغرفة الجوانية ليعود بطنبور باغلمه ويغني، نكزني خوشناف مشيراً إلى مرطبان عسل على الرف: زليخان بتدهنلو بالليل وبتمصلو.

تزوج في السبعين من زليخان الخمسينية التي وصلت إليه بحقائب من المراهم والعطور وكريمات الفازلين وكانت عمتي تقول بأنها تعطيه الحبوب لذلك ترى عينيه حمرواتين دائماً.

كان مشهوداً له كفنان بين الأكراد لكنه كان يرفض أن يترك أثراً، لا يغني في الأعراس، ولا يشارك في حفلات الأحزاب، ولا يسجل الأغاني، يروي قصص صداقاته مع المغنيين، يذكر أن جميل هورو وعائشة شان ظلا يتنايكان في فندق بإستانبول حتى الصباح ويعتبره صوتاً ذهبياً، وأن آديك أفضل من عزف على الطنبور، وحين رأى أنه أسرف في الشرب وفي الحديث قام وقادنا إلى الغرفة وأخرج جهاز فيديو قديم ليشاهد ربما للمرة المئة أو الألف الفيلم

نفسه حيث يسوق إبراهيم تاتلسيس الشاحنة بين أورفة وإستانبول، يغني معه الأغاني التركية، ولم يتمالك نفسه فبدأ يبكي ربما للمرة المئة أو الألف حينما أخذت البطلة تعلق نفسها بحبل وأتى إبراهيم لينزلها عن الشجرة و يرفعها على ذراعيه وهو يصرخ: أمينة أمينة، ولتظهر إشارة (son) معلنة نهاية الفيلم ونهاية الزيارة.

حين هبطنا الدرج لنخرج من المنزل، ألتقطتنا زليخان، ومعها أكياس الخضرة والفواكه، كانت تشبه سيدات الأرمن بلباسها العصري، ضحكت لنا وودعتنا وحين مررت بجانبها أمسكت يدي وقبلتني على خدي وقالت:

سلملي على أبوك إذا إجا.

كان المؤذن يرفع نداء صلاة المغرب من مسجد أسامة بني زيد، أخذنا نتمشى نحو الأقيول، خوشناف يصفر، وأنا أحاول أن أمسح عن خدي قبلة العسل التي إلتصقت به إلى الأبد.

المنتقم الصغير

رواد السينما كانوا متسكعين تناسبهم عروض متتالية ببطاقة واحدة، يأتوون منذ الصباح ينتظرون في شارع بارون، يتأملون أفيشات الأفلام والملصقات الحاشدة بصور نساء عاريات، يتغدون سندويشات الفلافل مع الكازوز في فترات الإستراحة ويغفون ولا يخرجون إلا في المساء.

طلبة هربوا من المدارس، عساكر في إجازة، غرباء عن حلب، قوادون، ومراهقون يعطلون يوم الاحد أو الجمعة يأتوون ليتصيدوا مشهداً ساخناً، عناقاً في السرير، نساء بالبكيني على البحر، وفي أحسن الأحوال لقطة مقتطعة من فيلم بورنو مدسوسة في فيلم مصري أو فيلم كاراتيه، يمضوون نهارهم أكمله في إنتظار دقيقتين يلتحم فيه جسدان عاريان، دقيقتان تتحول فيهما السينما إلى معبد يبتلع فيهما الفحول لعابهم بينما الأيادي تتحرك، تمسد، لتغرق العتمة في رائحة المني، ورطوبة السراويل الداخلية، وسكون لايقطعه سوى مشاهد الفيلم الذي يعرض فتبدو كموسيقى تصويرية لضجة الأدرينالين في الدم النابض خلف الأذن.

وكان يُحكى عن رجال يتحرشون بالصغار في سينما أوبرا، سينما فؤاد مقفلة بسبب حريق نشب فيه، سينما راميتا حيث كان يعمل خليل ابن عمتي كانت معقل الأفلام الهندية، و بإضافة صالة رمسيس يصبح شارع بارون جادة للسينما بإمتياز، أما خارجه فتعرض سينما أوغاريت عروضاً منتظمة، سينما حلب في شارع القوتلي مغلقة بسبب الصيانة، ومقابلها نحو باب الفرج كانت الصالة الكئيبة المملة، الكندي، الصالة الحكومية الوحيدة حيث تعرض الأفلام الصعبة ذات الحوارات المبهمة والتي لا يحضرها سوى ثلاثة أو خمسة من الطلبة أو موظفو الصالة أنفسهم.

السينما في وسط البلد، فقط صالتان بعيدتان، الزهراء في السليمانية قرب مشفى سلوم، السينما الوحيدة التي ترتادها العائلات وأغلبها مسيحية، وغرناطة في آخر الحميدية والتي كانت أول صالة تحول إلى صالة أفراح وتبعتها في ذلك سينما العباسية في باب الفرج، وزحف عليهما الأكراد بأعراسهم ودبكاتهم وأصوات مغنيهم الشعبيين .

أقذر الصالات كانت سينما القاهرة (الشام لاحقاً) في العبّارة بالمسمى نفسه في باب الفرج، ولم يكن غريباً أن تصطدم بأحد ما يمد رجليه فوق المقعد الذي أمامه وقد فك سحاب بنطاله، وكثير من الرواد كان يتحاشى الذهاب إلى التواليت قرفاً من رائحة البول وخرائط الخراء على البورسلان أو خشية أن يحط أحدهم يده على مؤخرتك بينما أنت واقف أمام المبولة.

سينما الحمراء كانت بيتنا، يعمل فيها أبو خالد زوج عمتي زين مضوياً، وشقيقه أبو فوزي في البوفيه، وأول مرة رأيت فيها الشاشة كانت حين اصطحبني أبي وخوشناف ذات صباح إلى سينما الحمراء، أنهى خوشناف قهوته على عجل ليلتحق بعمله في محل قطع التبديل في بستان كليب، فيما بقي أبي يكمل النسكافيه والحديث عن الزيتون مع أبو فوزي مطمئناً على ابنه في ألمانيا، أخذني أبو خالد من يدي فقمت وتتبعت ضوء البيل يمتد من يده نحو جوف الظلمة، كان قد مضى أكثر من ساعة على "المنتقم الصغير" وهو يركض في غابة الشرّ ليتمكن قبل نهاية الفيلم بقليل من التعلق بالهليوكوبتر التي على وشك الإرتفاع عن الأرض، بضع دقائق ونرتفع معه في السماء ليعارك رئيس العصابة الذي يحاول الفرار بطائرته، بضع دقائق أخرى ويسدد إلى وجهه قبضة الحقد المروي بإهانات قديمة، يهوي الرئيس للأسفل ويكبر المنتقم الذي لم يعد صغيراً، يصفّق له من في الصالة ويصفّر وأصفّق معهم وأحاول أن أصفّر بينما ستارة خمرية بحواف مذهبة تهبطُ ببطء.

أصبحت رجلاً

طوال أسبوعين كنا مشغولين في الصف باكتشاف من منا لم يعد طفلاً،" لتعرف أنك بالغ، أدخل الحمّام، إيدك والصابون"، قال صديقنا الشاب من بيت العلبي معلناً السر الذي نجهله.

تحممت، أنا الذي أكره الإستحمام، أربع مرات في الإسبوع الذي تلى ذلك اليوم مما لفت نظر الجيران في المنزل ذي الغرف الكثيرة التي تسكنها خمس عائلات، وكنت كل مرة أخرج من الحمّام بخزي يصطحبني إلى المدرسة في الصباح التالي.

كنا على وشك الخروج حين طرق الباب، دخلت أماني تحمل في يدها صحناً مليئاً بالغريبة، "صباح الخير" ناولتني قطعتين، واحدة لي والأخرى لخوشناف ناولته حين لحقت به قرب العندليب للحلاقة، كان عبد الحليم يغني زي الهوا وتخيلت أماني تسبقني، تأخذني من يدي فأطير فيما قلبي حائر حائر مثل قلب عبد الحليم.

تبقى أماني تنظر إلى الأرض وحينئذٍ يكون الصمت ولا يُسمع سوى هديل الحمام الذي يربيه بيت الهيب، أما حين تنظر في عيني بوجهها الأبيض الصغير ورموشها الطويلة وقلما تفعل، يرتعش جسمي وتطير أسراب الحمام من منازل آلمه جي، وتحلق فوق قسطل حرامي حتى ميسلون وتلتف في دوائر واسعة لتتصل باب الحديد، وباب النصر فتراب الغرباء وقسطل المشط حتى ساحة الحطب.

سبقني خوشناف كي لا يتأخر عن عمله في بستان كليب، فأبطأت المشي وحين خرجت من بوابة القصب، أشتريت كعكة مع سحلب، أسندت ظهري لشجرة كينا وأخذت أتأمل مباني التلل وتحديداً المبنى الذي فوق شرطة النجدة، تماماً حيث عيادة باركيف أنضونيان الذي لم نكن نشفى إلا على يديه، وكان أبي يرى أن لا أحد يضاهيه في الطب سوى إحسان الشيط، لكن إحسان مجنون حين يغضب فيما يبقى باركيف ودوداً ولا يصف سوى دوائين، وكان أبي يختم بما يشبه الحكمة: "الأرمن عقلاء."

حين إنعطفت يساراً نحو باب الفرج، رأيت حشوداً تصفق وتهتف الله أكبر في الساحة، إقتربت، كان خوشناف بينهم، شباب في العشرين، خمسة أو ستة، لم أعد متأكداً، كانوا ملفوفين

في قماش أبيض كالكفن، ومعلقين بحبال مبرومة من أعناقهم في مشنقة أعدت تحت شجرتي النخيل بجانب الساعة أمام دارالكتب الوطنية، كانوا دمى في مسرح ظل، بل سيركاً مرعباً، ”هذه هي العصابة، ولاد الشرموطة، الكلاب، تعال أنظر“، تحاشيت النظر في المشهد وتركته هناك يصفر مع الحشود، وبقيت ساعتين في عتمة سينما القاهرة أحاول أن أخفي الرعب تحت جلدي دون جدوى.

بقيت النهار بأكمله في الصالة، لم أشته صندويشة فلافل كالعادة، بل كنت أكرع الكازوز زجاجة تلو زجاجة، ثم حين عرض "الحب الحرام" الفيلم الذي سأتذكره طويلاً، وبدأت المقاعد المعدنية تصدر أزيزها فيما الشباب يحركون أجسادهم، أخذ قلبي يدق بقوة،أشهق بسرعة و أزفر أسرع، كانت يدي تقبض على السر، وكانت زبيدة ثروت تركض في حقل ما بثديين يخرجان من سوتيان أبيض تحت قميص أسود محلول الأزرار.

”لقد أصبحت رجلاً.“

أخذت حلب ترتفع في السماء، وكانت ثمة غيوم تعبر بجانبها، غيوم خفيفة تتبدى في ضبابها زبيدة ثروت بثدييها، أماني برموشها الطويلة وهي تنظر إلى الأرض وتناولني الغريبة، و المكفنون بالأبيض المعلقون في الهواء برؤوس مائلة تحت ساعة باب الفرج.

أعناق المانيكانات

هناك البرهان العددي على وجود الله، أنظر،1 ،2 ،.... 3 هل فكرت في الصفر، الصفر هو البدء، لا بد من بدء، الله هو البدء، الله هو الصفر، ثم أضاف معمه الذي لم يكن يكبرني إلا بعام واحد :إن لله تسعاً وتسعون اسماً، ولا يعرف الرقم المئة سوى الأولياء، وأن الشيخ عبد الله السراج ولي من أولياء الله، ومثله قلائل ولا بد أن تقرأ له أدعية الصباح والمساء، ووعدني أنه إذا أتقنت أحكام التجويد على يد الشيخ عبد الله فإنه سيلحقني معه بمريدي الشيخ محمود قطان، وبأنه سيأخذني ذات جمعة إلى جامع الجكارة أي جامع التوحيد الذي أقيم بين كنائس كثيرة جكارة في أهل الذمة من سكان العزيزية والسليمانية لنرى كيف يخطب الدكتور محمود عكام القادم من جامعة السوربون.

وفي رمضان كنت أرافقه إلى صلاة التراويح في جامع أسامة بن زيد في الأقيول، وصلينا معاً صلاة التسابيح أيضاً التي من سنة النبي وتؤدى مرة في العمر، وفي الفجر الذي حضرت معه الذكر في آخر خميس من رمضان، رأيت أحد المصلين العجائز يقفز ونحن نردد: الله الله، ثم أشعلوا المصابيح وهدأنا فيما بقي العجوز يقفز حتى جاء الإمام وضمه بين ذراعيه، ثم خرجنا وكان ما يزال يرتجف، قال معمه: لا بد أنه ولي.

أحتلمت ذلك الصباح على صورة رهف في آخرالزقاق وهي تقود يدي تحت قميصها المدرسي وحين أيقظني خليل إبن عمتي الآخر لأرافقه عطلة الجمعة إلى سينما راميتا حيث يعمل مضوياً وفي صيانة الكراسي، كنت بمزاج كئيب ولم يجف البلل الذي بين فخذي حتى عبرنا شارع الخندق والقوتلي ولم يزل المزاج الكئيب إلا ببقائي في الصالة ست ساعات أشاهد عروضاً متواصلة ختامها كان فيلم "إمرأة من نار"، وحين خرجت كنتُ خفيفاً ولم أكن أفكر إلا في الكيلوت الأبيض الذي كانت ترتديه ناهد شريف والمسدس اللامع في يد صلاح ذو الفقار.

عدت وحدي إلى البيت بعد أن تمشيت لساعة وأكثر في شارع التلل أراقب المانيكانات في محلات العطورات والألبسة النسائية، وحين وصلت إلى بوابة القصب، أشتريت كيساً من الملبس المحشو باللوز لأجل رهف، أستدرت للخلف وتخيلت حلب حقلاً شاسعاً من عباد الشمس، تصطف المانيكانات بجلال وتردد بخشوع :الله الله، لتحيط جميعها برهف البيضاء،

النحيفة، الطويلة العنق، ذات النظرة السارحة، تدير لي ظهرها بخفر تاركة لي عنقها الملساء الطويلة تماماً كأعناق المانيكانات في شارع التلل.

حكاية أخرى

"يا ابن الحرام، ارتدي شيئاً " تنهره عمتي" عرصة حشاش ابن حشاش "تخاطبه بينما تلتفت نحوي وتناولني قطيفة محشوة بالجوز، وحقا أبوه كان كذلك، طوال حياته يلاحق الكيف، رافق جميل هورو وعلي تجو وبيتاز في جولاتهم البوهيمية وختمها صاحب البيب أي الغليون بأن حاول تهريب نصف كيلو من الهيرويين إلى إيطاليا، ليسجن هناك.

خوشناف لا يسمع، مرتدياً بيجامة قطنية يتمدد عاري الصدر (كان قد أنهى خدمته العسكرية منذ شهر) يشرب العرق ويقرأ في مجلة الفن ويستمع إلى أم كلثوم.

كنا قد استأجرنا غرفة من عمتي التي استأجرت المنزل من محامي عائلة يهودية تعيش في أمريكا منذ أكثر من عشرين سنة بأجار ضئيل لم يعدل، فسكنت في الغرفة الكبيرة بعد الممر وغرفة صغيرة في العلية خصصته لأولادها الطلبة والقبو للمؤنة أما باقي الغرف فكانت تؤجره، كل عائلة في غرفة، تشترك جميعها في الحمام والتواليت والمطبخ، والجيران أغلبهم آتون من القرى ويعملون في بيع الجوارب الرجالية على بسطات يمدونها في المنشية والعبارة وباب الفرج وساحة سعد الله.

في الصباح تذهب النساء إلى سوق قسطل حرامي وبعد الظهيرة ينهمكن في إعداد وجبات الطعام في إنتظار أزواجهن الذين يصلون بعد العصر وبعد دوش قصير يفترشون أرض الديار و يشرعون في فت الورق.

تتر ومحمد علي المتزوجان من شقيقتين يلعبان التريكس شريكين ضد مصطفى ذو الذراع الواحدة طالب البكالوريا الذي يستطيع أن يجادل حتى الصباح عن الماركسية ، و عدنان الذي لا يكف عن الدندنة بأغنية عن هدهد يغني على الصخور ويحلف بأنه ذات يوم سيسرق سيخ شاورما من العبارة بجانب سينما حلب وسيركض به حتى ألمه جي.

تعبر سعاد زوجة عدنان من غرفتها نحو التواليت، تطل برأسها من الشباك، تضحك وتقول: "تفو عليك، لك إستحي شوي."

وبينما كانت عمتي توزع قطايف الجوز ، دُقَّ بابُ الحوش فخرجت سعاد من التواليت مسرعة وفتحت الباب لتأتي ومعها نسوان آل الهيب، الأم وأماني وخلفهن رهف.

هذا الصباح وكمن يجد قطعة نقود في جيب بنطال قديم ، بعد سبعة وعشرين عاماً وبينما أتجول في البيت ولا تلمح عيناي سوى الأدوات الحادة: المقص على طرف الكوميدنة، السكاكين بجانب المجلى سأتذكر جيداً أن أم كلثوم كانت تعيد: "البعد علمني، علمني، علمني السهر"، مفيدة تضحك، سعاد تغمز خوشناف حين تناولتْ رهف قطيفة الجوز وأخذت تمضغها بهدوء في فمها الصغير وهي تنظر إلي وتجرّني إلى حكاية أخرى.

آنّا وبول

I

رغم أن بول كان قد تجاوز الواحدة والأربعين، العمر الذي من المفترض ألا يترك شيئاً خلفه إثر زوال الغشاوة الرومانسية سوى الصلب والدم وإكليل الشوك والذباب فإنه كان ما يزال يرى بعين الخيال، لوهلةٍ تخالُ أنه السذاجة نفسها ناطقةً، ماشيةً على قدمين، ولشدة صدقه بما كان يؤمن به كان لا بد أن تؤمن معه حتى تمسُّكَ عدوى اليقين العاطفي فتصدقه تماماً وتكاد تشم روائح طبخات وخلطات غريبة كان يفكر في اقتراحها على الطهاة، وإن تكلّم عن الماضي ترى ظله وهو يقفز بصحبة والده في نزهات صيد سمك متكررة على ضفتي الراين، وتحسُّ بأنفاسه محبوسة وقد سها مع جده لأمه ناظراً إلى الكمال في أبراج كاتدرائية كولن، وليست على النقيض تماماً، كانت آنّا تُكْثِرُ من " لَكِنْ"، تستدرك لتنظر بعين الشك، ابن العقل البار الذي يلّوث وبل يتركُ وَهَنَاً حين يشتدُّ عليها وفقدانَ شهية وشحوباً في الوجه، ولذلك بينما كان بول يجلس متلهفاً أيام الآحاد محموماً يكتب الرسائل التي سيدسها بين سندويشات كوكو في صباح اليوم التالي، فإن آنّا كانت تهجس بالإستغفار عن ذنوب لم ترتكبها، تستغرق في الصلوات لتخفف من الشك الذي بدا وكأنه قد جرح حدقتي عينيها ليبدو كل شيء مشوهاً رغم أنها بالكاد كانت قد تجاوزت الثالثة والعشرين.

II

ثلاثة أيام ورسائل بول كانت تعود مع كوكو دون أن تُفْتَح.

رافقت آنّا خلالها الأم بياتريس إلى مخيمات الأرمن في قارلق وأقيول والسبيل وثم في اليوم الأخير إلى حي العقبة، إلى الميتم الذي كان يديره القس هارون شيرادجيان في المنزل المحاذي للقنصلية الألمانية.

كان عالماً آخر ينبثق أمامها ويمرّ بغرابة لم تحدد ماهيتها بالضبط، لكنها كانت تحس تماماً بشيء يضغط على معدتها، وكادت أن تختنق في مخيم السبيل ليس من قلة الهواء أو الروائح بل من الحنق حين وجدت نفسها واقفة على حافة خندق كان قد حُفِرَ ليُلقى فيه كل صباح موتى الليلة السابقة، سحبتها من يدها الأم باولا واتجهن نحو الباب، وهن يغادرن لاحظت رجالاً ونساء من أهل المدينة بملابس نظيفة يدخلون، في الحال أوضحت لها الأم بياتريس أن أتراكاً وعرباً ويهوداً من المحرومين من الأولاد، يأتوون في العادة لشراء الصبيان والبنات من ذويهم، تابعت: ربما يتململ الأب، ربما تمتنع الأم لكن في النهاية هذا ينقذ من البرد

والجوع والتيفوس والكوليرا والموت، كانت ستكمل لولا أن قاطعتها آنّا: اللعنة، بهذه السهولة.

– لا لا، ردت بياتريس الأم، ليس من السهل أختاه، ليس من السهل، ولا شيء يحدث في الحياة بسهولة، وأضافت:

أغلب الأمهات بعد أن يتنازلن، يصبحن مكتئبات منطويات وبلهاوات، هذا إن لم يصلن إلى الجنون التام.

بينما كانت آنّا تنحني لتلمس أرضية التبن التي تُسْتعمل كفراش للأطفال في ميتم القس شيرادجيان، كان بول يروح ويجئ ينظر إلى باحة الروضة، كان غاضباً ونزقاً وما إن تفقّد الغرف والصالة والمطبخ والحديقة بخطوات سريعة حتى دخل إلى غرفته وأغلق الباب خلفه.

رأى سكين مطبخ على الطاولة، كان قد نسيها بعدما قشّر تفاحة عند الفجر، حملها إلى قرب وجهه، تأمل المسامير الثلاثة في المقبض، حكّ بحدها ظفر إبهام يده اليمنى وثم بضربة قوية غرس رأسها في خشب الطاولة ليجلس بعدها على كرسي واطئ لا مسند له، رأى أن ما يحدث له ليس من العقل، بقي في مكانه أكثر من ربع ساعة يفرّك يديه ببعضهما ثم تخيل أنها موجودة لكنها لا تحب أن تظهر له، وابتسم حين تصور أنها تمتحنه، تمر هنا وهناك وتراقبه، وما إن تخيل أنها حقاً ربما موجودة وتراه وأنها مختبئة خلف باب ما وربما ستفاجئه، حتى ابتسم لنفسه، وضع رأس سبابته في الجرح الذي أحدثه السكين في الخشب، وشيئا فشيئاً كاد قلقه أن يزول وبل أصبح لطيفاً مع نفسه، خفيفاً مرحاً ولم يكن من شيء يقلقه لحظتها سوى الخفة التي انتابته فجأة، ليلاً في ذلك اليوم سيلاحظ للمرة الأولى أنه كلما كان يحين منتصف الليل، كانت أصوات غريبة تصدر عن خزانته الثمينة، خزانة خشب الجوز المطّعمة باللؤلؤ والفضة وعيون المرايا الصغيرة.

III

لا شيء يفوق السعادة التي يمنحها الحب سوى التعاسة التي يخلفها الحب نفسه فيما بعد، تمتم مع نفسه وهو يودع نهاره الذي قضاه متمشياً على تخوم قويق. كانت عائلات تتنزه هناك تحت الاشجار، أحس لوهلة أن الحياة حيث ينظر لا حيث يكون وأنها لم تعد تخصه، كان الماء موحلاً في أماكن ومغطى بأوراق في أماكن أخرى، أما الأشجار فكانت تبدو كائنات شبحية يكتنفها الرماد لا الغموض على طول الطريق الذي طالما سلكه ليستخلص ساعتها أن الطريق ليست سوى أثرٍ غريبٍ تحفره أقدام بائسة تنفر من بعضها ومن الأجساد التي تحملها.

تهبط إبرة الغراموفون في صالة الطابق الأول فتصدر الموسيقى من القمع الذهبي اللامع

ملتفة بين المقاعد والسيقان والأذرع لتستقر حول " خذني معك بعيداً من هنا " ويتردد رنينها على بلاط الصالة الأخضر البيج البني بين الجدران المطعّمة بالخشب والأبواب القوية الصلدة ذات المصراعين. تدور الأسطوانة وتتكرر اللازمة ليأمل كل من يصغي للأغنية بأحد ما أكثر قوة، أشد جمالاً، يبتسم بقلب مفتوح ويد ممدودة من بين الضباب، لا يأبه للطريق لا للغيوم، لا للفتور ولا للوهن.

خذني معك وتظنه آنا بعيداً عن الأجراس، بعيداً عن الله الذي لم تره للآن ولم يره أحد، بعيداً عن المدارس والجوارب البيضاء والمغفرة والأخطاء النوايا والشهوات المكبوتة، بعيداً عن يجوز ولا يجوز، بعيداًعن الأفواه الرمادية الممتلئة بالإعترافات في الوجوه المطهرة بالدموع.

بعيداً من هنا خذني معك ويظنه بول بعيداً عن الأوامر والنواهي، عن الجنود والأرتيستات، عن المهندسين والجنرالات والباشوات، عن تذلّف الخدم وغطرسة الملاك، بعيداً عن البهارات والصابون والنعناع واللحوم والبطاطا، بعيداً عن الشرفات المغطاة بالعرائش والسلم والقبو والدرج والممرات والغرف، بعيداً عن المواقد والشمعدانات والأسرة وخزانات المياه.

وثم حين ستتوقف إبرة الغراموفون عن الضغط يعود كل إلى مكانه، تذهب آنا إلى الظلام تتقاسمه مع الاخوات، يذهب بول إلى اليأس الأبيض حيث ستصر الأصوات حتى يغفو منهكاً من صرير الأصوات وهو ينظر في خشب الخزانة في الحواف في الظل في المقبض بثباتٍ لا جدوى منه من عينين لا تريان بل تنتقمان من مجهولٍ ينخر في الظلام.

IV

بدأ الأمر بخدش أقل من سنتيمتر واحد على المعصم الأيمن بدءاً من الشامة البنية الصغيرة حتى حافة الوريد ثم أخذ يستيقظ ليرى خطوط الخدوش على كامل الصدر، ذات يوم وجد بقعة دم بحجم الكف على المخدة وجرحاً في صوار الفم شك أنه ربما عض عليه أثناء النوم، ثم بدأ يلاحظ الكدمات على أنحاء مختلفة من جسمه، تحت العين، في الخصية، جلد الكتف وأنحاء أخرى وصار بحكم العادة يدخل الحمام حالماً يستيقظ، يدخل الحمام مسرعاً يخلع عنه ليرى أينما أذي هذه المرّة، الغريب أنه كان لا يتألم، لا في النوم ولا في النهار، فقط يرى جزءاً منه قد انتهك، وحين التقى بآنا كان مشوشاً تماماً ومشغولاً بنفسه حتى الهوس، قال: أشك أن أحداً ما يجرحني كلما نمت،

كادت آنا أن تتجاهله لكنها سايرته:

ـ ومن تظن؟

ـ هذه.

مشيراً إلى يده اليسرى،

حملقت بعينيها ذامة فمها بمعنى: هكذا إذن وماذا يدلّ على ذلك،

ـ وحدها سليمة، ثلاثة شهور وأنا أُجرَح،

أغمضَ عينيه مكملاً،

ـ دم، منذ أسبوعين وأنا أرى دماً تحت أظافر هذه،

فقع بول بسبابته حبة من سفط دواء على المائدة فأصدر السلوفان صوتاً خفيفاً، ابتلع دون ماء، أراد أن يعيد السفط إلى مكانه، لكنه أفلته فسقط قبل الحافة، أعاد حمل السفط عن الأرض وأفلته في المكان الخطأ، قبل الحافة، مرةً ومرةً أخرى.

٧

كان كوكو يتنقل بخفة في الأرجاء وبجانبه سيزر وبروتوس، وفي وقت آخر كالي وتراجان، كان نادرةً في اتقان اللغات والتحدث بها بطلاقة، أكثر من سبع لغات، يرتدي بدلة من بدلاته الفاخرة، يقدم البراندي للضيوف، ويقصُّ عليهم قصص العظماء الذين مرّوا هنا وهناك، في الصالة والبار، في الباحة وقاعة الطعام، وكان الكلبان الأبيضان من سلالة غولدن روتريفر يتحركان إلى جانبه، تارة يرّبت على الرقبة، تارة يمسح الصدر مطبطباً، فيقفان على قوائمهما الخلفية استجابةً لإشارات سيدهما، أو إشارات السيدة سالي، ويمرحان فيزهو السيد ويصفّقُ الضيوف، ويظلاّن يكرران الوقوف وهزّ الذيل حتى يهرمان فيُستبدلان حينئذ بإسمين آخرين لزوج آخر من السلالة الذكية المطيعة اليقظة، القويّة الفك، الجريئة، الحادّة الشمّ، السهلة الترويض التي لم يكن رأى منافساً أو شبيهاً لها في حياته سوى تلك الجيرمان شيبرد التي كان آرمين، النبيل العجوز، يقتنيهما، وظلّ كوكو يبتدأ بوصف العينين المستديرتين والأنف المدبب الأسود والفم الطويل المستطيل والأذنين القائمتين المتوازيتين المفتوحتين للأمام، كلما كان يتذكر اليوم الذي عاد فيه بورقة وسلمها لبول، بول الذي كان يحاول أن يتماسك مصغياً لتوصيات العجوز على الدرج، دون جدوى بعدما كان قد أوصله الحبُّ لأقصى الحيرةِ، والحيرةُ لأقصى الخُذلان، خُذلان الجسد والقلب والنفس، والخذلانُ لأقصى التّيه بما فيها الاستسلام للأصوات، في الليلةِ التي تلت ذلك النهار مدَّ بول يده إلى الخزانة، فعادت متنّكرةً له، لم تكن يدُه، كانت يدَ رجلٍ آخر.

لم يستغرق الأمرُ أكثر من ارتعاش البط في قويق، ما استغرق طويلاً كان شيئاً آخر، فمنذ أن فرش الجدُّ أمامه رقعةَ الشطرنج في باحة كاتدرائية كولن، وحرّك الفيل والوزير تلك الحركات الأربع السريعة الرشيقة المدهشة المدمرة، رافقه السؤالُ نفسه الذي ظل يلقيه على نفسه دون أي جواب:

إذا كانت خطة نابليون لقتل الملك واضحة كل هذا الوضوح فلماذا يقع فيها أغلب البشر.

بكيتُ في الظلام

1

بنظارته المذهبة ووجهه الحليق والحركات الباردة المؤمنة اليائسة التي تصدر عن جسده الطويل والنحيل حين يمارس عمله، كان الدكتور موريس يبدو تمثالاً من البورسلان الأبيض، وحين كان الابن الأصغر لغرو، على عادته، يخلع ثيابه ويخرج عارياً يركض في الزقاق، كان الدكتور موريس يلتقطه من الباب، يرفعه عالياً، يجلسه على طاولة الفحص البلورية، ينظف أصابعه بقطن مبلل بالكحول، ثم يقيس وزنه، ثم يدق على باب غرو، ويخاطبه :دير بالك عليه، هادا برّي، لا تتركو لحالو .

ذات يوم، حين كان متوارياً عندي في أسبوعه الأخير، قال مشيراً إلى العهد القديم في يده : الكتب المقدسة ينبغي ألا تقرأ إلا بعد الأربعين، وأضاف :الشعور بالذنب لا يخلف سوى الضباب، أظن أن الخطيئة ... وتوقف لحظة، شهق بحرقة، نفخ خديه، ثم زفر بقوة، وصمت لكنه ظل يربّت بقبضته المضمومة على وركه الأيمن وهو يروح ويجيء في الغرفة الخلفية لمكتبة القرطاسية التي كنت أملكها في الهلك.

وبعدها اختفى الدكتور موريس، كغيره من يهود حلب، أوصاني بعائلة غرو، فهذا الذئب يجب ألا أدعه وحيداً، وأوصاه بمفاتيحه التي تسببت باستدعاء غرو إلى فروع الأمن لأكثر من عشرين مرة.

2

حين ترك غرو إخوته ونزل من جبل الأكراد، كانت الهلّك لم تتسع بعد، ولا أصبحت مركزاً لورشات الموبيليا وورشات الأحذية، فعمل سائق تاكسي إجرة، ثم تزوج من ألماز، ابنة رجل من أكراد ماردين، ولم تنتظر ألماز طويلاً فولدت له بعد تسعة أشهر ولداً أسمته مير وثم ولداً آخر وأسمته منان وثم ولدت له تشيلو.

من إحدى زياراته إلى فنادق باب الفرج أصيب بالسيلان، ولزمه شهر كامل من الحقن العضلية والوريدية حتى شفي، فكان يضحك ويقول: يا زلمة، لبين ما فتحت بخش، انفتح فيني

تسعة وتسعين بخش، أحياناً كثيرة كان غرو يتفاخر بأنه فحل، من أنه يستغرق في النيك ساعة ونصف حتى تبكي ألماز وترجوه أن يتوقف، وأحياناً كان يلعن نفسه وجنس النساء، ويقول :يا ريت لو الإير أطول بشوي، كان الواحد ناك حالو وأرتاح.

أول مرة، رأيته كان حين أوقفت سيارة تاكسي في باب النصر، وحمّلت الدفاتر وعلب الأقلام والمحايات والبرايات إلى الباكاج، ثم ركبت بجانبه، كانت رائحة الخبز الطازج والفول والبصل تفوح من الداخل، وكان هو يمسد بطنه وأول جملة نطق بها كانت :نكت وحدة من نص ساعة، ثم أضاف :النيك ع الصبح طلع حلو كتير، شو قولك؟

تقبلتُ الأمر على أنه مزاح غليظ أو أنه غريب أطوار أو سكران، وطلبت منه :لو سمحت خدني ع....، فقاطعني فوراً: ع هلّك، شارع المدرسة، بجانب موريس ألويه، تكرم جاري . وفتح الراديو وأدار الدريكسيون وأنطلق نازلاً جادة الخندق في ظهيرة ذلك الأربعاء من أيلول 1980، حيث ما أزال أحتفظ بواحدة من أول كروت فيزيت لامعة ومسلفنة طبعتها لمكتبتي في ذلك اليوم.

3

دفنتُ نفسي في المكتبة.

أخذت أجلّد الكتب المدرسية، والكتب الأخرى التي يطلب مقتنوها تجليداً فاخراً أرسلها إلى سبيرو بالجميلية، اقتنيت ماكنة تصوير فوتوكوبي، ثم كمبيوتراً وطابعة سكانر، خصصت ثلاثة رفوف للعطور وقسماً للهدايا: أقلام الحبر، المسبحات، أوراق اللعب، القدّاحات، الغلايين، الورود البلاستيكية، والدببة البيضاء ذات الأنوف السوداء، بقيت عازباً، ولم أنشغل غير ذلك سوى بعائلة غرو، كنت أباً روحياً لها، وأباً روحياً لغرو نفسه الذي كان يمكن أن يصلح لأي شيء بشكل ما إلا أن يكون أباً، إصطحبتهم ولداً ولداً للختان عند عبد الكريم قطاية في الجديدة، إلى المستوصف لأخذ اللقاحات، و إلى المدارس لحضور مجالس أولياء الأمور، أتوسط لدى المكاتب العقارية لاستئجار منازل حتى اشتروا ال 75 متراً مربعاً وعمّروا فيه طابقاً فطابقاً آخر، أرافقه إلى ورشات التصليح في الميدان وإلى وكالات السيارة حين ينوي تبديل سيارته بأخرى.

لذا كنت أقف متأهباً في محطة بغداد جانب الأب وحولنا الأبناء متأنقين، ننتظر كولبهار، وتنفسنا الصعداء حين خرجت من عربة القطار مع آخر الخارجين مرتدية قميصاً صيفياً أبيض وتنورة بيضاء قصيرة، وحين مشت نحونا عصر ذلك اليوم من خريف 2011 وأخذت

تدق الرصيف الحجري بأسفل كعب حذاءها الأحمر العالي، كانت تؤكد لكل من ينظر إليها بأنها هي من تملك أجمل ساقين على هذه الأرض.

4

أسرّ لي متّان قبل أن يختفي أنه كان كلما دخل على كولبهار، كان يرى شبح الأخ بينهما، وأنه كان كلما استبدت به الشهوة كان ينزع جسده بقوة عن جسد كولبهار ويبدد منيّه على الأرض.

مع اكتمال دورة الأرض، أصبح غرو يرى في كولبهار التي ترمّلت مرة ثانية لعنة أصابت العائلة بعدما كان يحاول قدر ما يستطيع أن يبقيها. تشيلو أصبح يظهر على الحواجز العسكرية، ألماز لم تعد تقوم بمراجعة أي طبيب آخر بعدما يئست من المعالجات الفيزيائية والفيتامينات لعلاج الشلل الذي أصابها في الصباح الذي رأت فيه لون الصدأ على كيس خيش أمام البوابة والذي لم يكن سوى جسد بكرها مير.

بين رمضانين، أصبحت حرفة القتل الأشد ضراوة والأكثر كسباً والأسرع إتقاناً، أصبح أحدنا ينام ولا يعرف سيستيقظ أم لا، يغلق الباب فتمتد إليه يدٌ في الظلام، أو يفتح الباب ثم يستدير ليخرج، وإذ تقبض أيادٍ من الحديد عليه وتسقط عصابةٌ على عينيه، ثم يسيّر في طريق غامضة ليلقى في آخرها مائدة عليها مسدس، سكين، كلاشينكوف، ويهديه المحترف رفاهية أن ينتقي ما سيُقتل به .كان القتل أعمى، وكان يمضي قدماً، وحين يفكر أحدٌ ما في أداة أخرى، يكون الآخرون قد نسوها، لم نعد نستنكر، أي إله أطلق هذه الوحوش في المدينة، أين كانوا، بل كنا، دون جدوى، نستنجد بإله يروض هذه الوحوش التي أطلقت.

كنت ما أزال في الهلك حين اتصل بي غرو من الأشرفية بعد نحو ثلاثة أشهر من تلك الليلة المشؤومة وأخبرني أنه عرف اليوم أن كولبهار حامل، ووصفها بالقحبة، قلت له: طوّل بالك وبكرا الصبح نشوف بس خلي تشيلو ما يعرف.

لقد حدث أسوأ ما كنت أتوقعه، الأسوأ الذي نخشاه ويحدث، الورم الصغير الذي تراه ينمو ببطء تحت جلدك، تراه كل يوم لكنك تكمل ارتداء ثيابك وتقول: إنه لا شيء، لا شيء على الإطلاق، تظن أنك نسيته، لكنه يلعب أمام عينيك وثم إنه ورم، في مدرسة هدى الشعراوي بالسريان، كانت كولبهار في قاعة مع جيران قدامى، لم تخف حين رأتنا، كأنها كانت تنتظر مجيئنا منذ فترة طويلة، كانت حاملاً في شهرها الرابع على أكثر تقدير، وحين أشار غرو إلى بطنها وقال: ما هذا؟ بهدوء مشت نحو ركنها الذي تكوّم فيها أغراضها وجلبت كيساً،

وأخرجت منه لفحة عنق سوداء وخاتماً فضياً وساعة سايكو القديمة ذات حجارة الكوارتز الخضراء، وخاطبتني بغضب أخرس وهي تومئ برأسها يساراً نحو غرو: خلّي الأفندي يحكيلك.

5

كانت الحدود تمتد بين غرب حلب وشرقها، وظهيرة ذلك اليوم دخلنا في السيارة وقادنا غرو إلى عيادة سنية في حارة الأكراد، نهاية خط جامع الشيخ معروف لنقلع ضرساً ظل يؤلم ألماز الليل كله ولم تفد لا حبات البروفين ولا فصوص الثوم ولا سائل القرنفل، كانت الهلك قد فرغت من الأطباء، كل ما فعله الطبيب الذي صادفناه قبل شهور في ورشة النجارة لجارنا أن وصف الأنتيبيوتيك وأوصى أن نراجعه بعد أسبوع، واغتنمت لحظات وأريته فمي فما كان منه إلا أن قال: هادا صديقك السكري، هو عدو بس لازم تعامله كأنو صديق.

كان طبيب الأسنان الذي يرتدي جينزاً أزرق وحذاء رياضياً ويشبه لاعبي خط الدفاع في نوادي كرة القدم الشعبية ينوي أن يهاجر إلى أربيل ليعمل هناك تاركاً كل شيء وراءه، فأقترح غرو أن يستأجر منزله بالأشرفية حيث كانت الحياة ما تزال تحتمل هناك، وهناك عرفت ألماز في زوجته ابنة جارة قديمة، الجيران الذي أخرجوا الدكتور موريس ألويه في وقت ما وأوصلوه إلى الحدود، ظلت زوجته تروح وتجيء بين المطبخ وغرفة المعيشة وتدير الأحاديث بينما كان محمد رشو وهذا اسمه متمدداً على الأرض يرفع ابنه الصغير عالياً على قدميه، وقام فقط حين اقتربت منه ابنته و قالت أن ساعتها الجديدة قد وقعت في فتحة التواليت، بقيت ألماز نهارها هناك تبربر وحين قمت أنا وغرو لنخرج كان الطبيب ما يزال منحنياً على الأرض، مرتدياً قفازات مطاطية يحاول دون يأس أن يخرج الساعة اللعينة من الفتحة الخطأ التي صممت لتبتلع الأشياء التي نتنازل عنها للأبد وبسعادة .

الطريق من الأشرفية حتى الهلك عبر بستان الباشا كان طويلاً أكثر من أي وقت آخر، وكانت الميليشيات العسكرية تقتسمه بحواجزها التي تجاوزت العشرة، ربما هذا ما دعا غرو إلى أن يثرثر بألم، تارة عن الدكتور موريس الذي أوصاه بمفاتيحه، وتارة عن أبنائه وحين ذكر بكره مير، ضغط بقوة على مكابح السيارة، كنا على مقربة من حاجز عسكري، مال بجذعه للأمام ودفن وجهه في الدريكسيون، كان الجنديان الملثمان يلوحان لسيارتنا بغضب وكان غرو يبكي دون أن ينتبه لأحد .

رغم أنه كان يراها لعنة العائلة وكفى، لم يأتِ غرو على ذكر كولبهار التي كانت تظهر وتختفي منذ أن هبطت على مير من صورة بروفايل في صفحتها على الفايسبووك قبل أشهر من وصولها بالقطار إلى محطة بغداد، لذا لم أعرف إن كان يقصدها حين قال: اللعنة نفسها أو أنه كان يقصد قذيفة كانت قد سقطت خلف مشفى فرح، كان يقود في الشارع المستقيم بجانب دار العجزة نحو مشفى الحميات لكنه أوقف السيارة فجأة ورجع الأنيريه إلى شارع فرعي ثم أتجه إلى مكان البناية التي تهدمت للتو و بينما كانوا مشغولون بإسعاف الجرحى و إجلاء القتلى، اتجه غرو صوب محل هاكوب للمشروبات والذي كان قد خلعت ضرابيته وحمّل سحارتين من البيرة إلى باكاج السيارة ومضى على عجل دون أن يدعني أن أنزل أو أن أمنعه أو حتى أن أسأله: ما الذي تفعله أيها المجنون، ما الذي تفعله بحق الجحيم .

لم نكد نصل إلى بيته حتى دخل الحمام وحلق ذقنه ثم جلسنا تحت شجرة الأنغيدنيا وأخذ يكرع البيرة مع صحن من الفستق المملح، وتعدل مزاجه شيئاً فشيئاً ومع الزجاجة الثالثة كان قد بدأ يلقي النكات وينعتني بالعجوز، وبعد المغرب بقليل، حينما لم يكن يجرؤ أحدٌ على الخروج، ارتدى ملابس نظيفة وقال إنه سيزور هداك البيت ملمحّاً إلى بيت أم كعير ورأيت من الضوء الشرير الذي في عينيه أنه لا بد أن أرافقه.

رغم السرية التي تستدعيها هذه المهنة ورغم الحرب كانت أم كعير تدير البيت بتدبير أنيق تظهر حرفية تدل على أيامها الذهبية التي ابتدأت قبل نصف قرن في بحسيتا، وبعدما دخل غرو إلى الغرفة الداخلية ذات الضوء الخافت، وبينما مولّد صغير يعمل لتوليد الكهرباء، بقيت تسرد لي عن التجار والشعراء والمغنين الذين عاشرتهم وكيف أنها كانت تقيم في غرفة تخصها وحدها في فندق الشرق الأوسط وكانت تجلس على شرفتها وتشم روائح التوابل والزعتر والصابون من المحل المقابل لتسجيلات الشماع.

ظهرت الفتاة التي كانت ستدخل على غرو، كانت تضحك لست أدري لأي سبب، جلست بجانب أم كعير، مالت عليها حتى بان منبت ثدييها ثم وشوشت بصوت أظنني سمعته بما لا غبار عليه: معلمتي، معليش صاحبتي تدخل عليه، هيّ هيك بتريد.

لم تتكلم المعلمة بل مسّت بطرف الأركيلة مسّاً خفيفاً على طيزها وأغمضت عينيها ما عنت: خلّيها تدخل.

قال غرو بأنه فعل أمام المرآة الطويلة في الغرفة الداخلية ما يفعله عادة ريثما تأتي البنت، شلح ثيابه وأخذ ينظر إلى جسده ثم مسّد حيوانه لينهض لكن لم يفعل، لم يتحرك مطلقاً، لم يتمدد، لم ينتصب، بقي كما هو، وعندما دخلت البنت فاجأه شيء آخر، كانت محجبة، وتحركت بإرتباك كان سيبدو واضحاً لولا انهماك غرو تحت الضوء الخافت في إنهاض الديناصور الصغير الغافي في كهف التكوين، ثم اقتربت منه، رفعت لفاحة رأسه عن الكرسي، واستدارت وشلحت ما عليها وغطت راسها باللفاحة السوداء، و أشارت إليه أن تمدد فتمدد على السرير، ركبته مديرة ظهرها له وانحنت على ديناصوره بيديها ولسانها وفمها ثم أفرجت بين ساقيها وخفضت مؤخرتها حتى مس شعر عانتها أرنبة أنفه داعية الذئب القديم ليعوي في البراري، لم يمضِ طويلاً حتى شقلبها وولج فيها وبينما كان يلكزها أخرجت خاتم الفضة من إصبعه ثم زاد في اللكز و شرع في مدّ عنقه حتى أدخل رأسه تحت اللفاحة السوداء و أخرج لسانها بفمه وأدخل لسانه في فمها، و بينما كانت تخلع عن معصمه ساعة السايكو ذات حجارة الكوارتز الخضراء، كان ملتصقاً بها من الفمين، وقال فيما بعد أنه شمها وشمّ رائحتها تحت اللفاحة التي تغطي الرأسين حتى لم يعد يشمّ سوى رائحة جسده التي يعرفها جيداً.

7

كنا محاصرين في البيت منذ ثلاثة أيام.

في الصباح جمع غرو فوارغ الرصاصات من البلكون، ثم قضينا ساعة في نقل سطول الماء، عجوزان مثيران للشفقة يتدحرجان على الدرج ويصعدان بصعوبة، تشيلو أتى عند الظهيرة ومعه ربطتا خبز ونصف كيلو من الحمص وكيلو من البندورة، كنا قد تجاوزنا تبادل "صباح الخير وتصبحون على الخير"، كما تعوّدنا على الاستحمام مرة كل عشرة أيام وبسطل واحد، ألماز لا تأتي سوى بأصوات بهيمية نفسّرها على أنها بحاجة لشيء ما، ونهملها غالباً، وحين كان غرو يدفعها بظهر يده كانت تصوّت كحيوان يؤذى في العين بعصا ذات أشواك، بالأمس ليلاً اجتمعنا في الممر مجبرين على أن نشم روائحنا الحادة، ولم نكن نملك الجرأة لنعبر إلى الغرف ذات النوافذ البلور الواسعة والمشرفة جميعها على الزاوية اللعينة إلا حبواً، كان الوقت متأخراً وكان الشمع قد بدأ ينفد، مالت كولبهار عليّ برائحتها القديمة وببطنها المنتفخ وقالت: عمو، حاسّة ما بدي أكمّل هاد الأسبوع وبكت، لم أر إلا وعيناي العجوزتان القاسيتان تؤلماني بحرقة، بيدي اليسرى حاولت ألا يقع المصحف مني، وبيدي اليمنى ضغطت على كتفها بقوة، وبكيت، بكيت في الظلام، بكيت كما لم أبكِ من قبل.

في التاسعة مساء أمسكت كولبهار أسفل بطنها وتأوهت، كانت تحاول أن تكتم الألم، نظرت إلى ساعة سايكو في يد غرو بجانبي، وانتظرت، كانت قد مرّ ما يقارب الخمسة والأربعين دقيقة حين تأوهت مرة أخرى، نظرت في عيني ألماز فنظرت في عيني وأغمضت مع هزة في الرأس، فأمرت غرو أن يسخن الماء، وأمرت تشيلو أن يخرج بسرعة، ناولته المسدس وقلت له: لا ترجع إلا ومعك طبيب، فأعاده إلي وقال: لا تخاف علي، وفتح الباب.

أخرجت كل شيء من الحمام، ولحسن الحظ كان واسعاً كفاية، وضعت كرسيين متجاورين وبينهما تخت البصل، وبجانبها أسطل الماء، وفي الممر فرشت بطانيتين فوق بعضهما، وحين عاد تشيلو ومعه الطبيب الشاب، كانت كولبهار تتألم كل نصف ساعة، زال شحوب الطبيب شيئاً فشيئاً حين رآنا نتحرك كحمقى، قال: يا جماعة، لا شيء معي سوى هذه الخيوط وهذه الأدوات، لن أكون أفضل من قابلة، وسأبذل قصارى ما أقدر عليه.

أخبرته أنه توأم، وجلست في الممر، انتحى تشيلو جانباً في المطبخ، غرو بقي في ظلمة إحدى الغرف منخفضاَ قريباً من الرصاصات التي تصطدم بحديد البلكونة بين ساعة وأخرى، وأصبح الطبيب سيد المكان، مشّى كولبهار في الممر، مسّد لها البطن بالماء الساخن وبحركات التفافية واسعة، يجلسها على الكرسي تارة: وسعي بين رجليك وخذي نفساً عميقاً وزفري، وتارة لا يمنحها سوى الحماس الذي لا ينطلي على من يتألم وكأنه على صفيح ساخن، في الخامسة فجراً، أطلقت كولبهار صرخة طويلة، خرجت يدٌ صغيرة، وبجانبها خرج الرأس ذو الشعر الأسود المبلل للطفل الآخر، عندها وحسب أسرعت ألماز بحركة الرجل الآلي، حركة المصابين بشللٍ قديم وأحضرت خيطاً أبيض وقامت بما لم يكن ليخطر على بال أحد، ربطت حول الرسغ الصغيرة، وغمغمت بمفردات مبهمة لم نتبين منها سوى: هذا جاء أولاً.